

مقاتل في التنزيل وعلى التأويل

رواية أدبية إسلامية
(أول رواية عن أمير المؤمنين)

مقاتل في التنزيل وعلى التأويل
مجاهد منعثر منشد الخفاجي



منشورات جسد
JASAD PUBLICATIONS

رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق العراقية لسنة 2021

الطبعة الأولى - العراق - بغداد 2021

Isbn :

اصدارات جسد

E.mail: jasad.library@gmail.com

هاتف جوال : + 9647828424910

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو
نقله بأي شكل من الاشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تنويه

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

مقاتل في التنزيل وعلى التأويل

تأليف الباحث الأديب
مجاهد منعر منشد الخفاجي

بغداد- 2021



منشورات جسد
JASAD PUBLICATIONS

الاهداء

إلى من علمني كيف أعشق الله تعالى

إلى من رباني على حب أهل البيت

إلى روح والدي المرحوم الحاج منعثر منشد العلي الخفاجي

أهدي هذا العمل

طباعة هذه النسخة المحدودة على روح المرحومة فتحية عباس

خضير

مقدمة

أملني في يوم من الأيام الاطلاع على رواية أدبية إسلامية عن إمام الإنس والجان وخليفة المسلمين ووصي رسول رب العالمين تتحدث عن سيرته بشكل أدبي إنساني، إلا أنني قرأت من عنه الشعر مديحا ورثاء، البحوث وجفاف كلماتها التاريخية مع التعصب لرأي الباحث، كذلك المؤلفات التي تناولت سيرته من جميع النواحي الشخصية والسياسية والعلمية والبلاغية والأدبية، لكن أصابني اليأس في الوصول لرواية أدبية.

وصلني خبر مسابقة في أمانة إحدى العتبات المقدسة، وكان بين محاور مسابقتها تقديم اعمال أدبية بينها الرواية، فأخذت على نفسي عهدا بتقديم رواية أدبية حتى لو كانت غير مرشحة للفوز بطباعتها. كانت المدة قليلة على انتهاء تسليم المشاركات؛ فازددت إصرارا على إكمال المشاركة الروائية، في يوم 9|9|2020 كعادة عصر كل يوم أجلس مع والدي نتحدث عن مختلف المسائل التي بينها أعمالي الثقافية، نظر لي وقال حرفيا: ولدي أترك كل كتاباتك وبحثك وجند نفسك لهذا المشروع الذي يرضي الله تعالى ورسوله (ص).

صليت المغرب وبعد العشاء باشرت بإعداد العمل. وفي الساعة العاشرة والنصف توفي والدي بهذا اليوم.

استمر مجلس العزاء في ديوان جدي لمدة عشرة أيام، ذهبت بعدها إلى العمل وأثناء عودتي دخلت المنزل فاستيقظ ابني من نومه ومن عاداته أن يصلي الفجر ثم ينام وينهض الظهيرة لمواصلة دراسته قال أبي رأيت جدي بالمنام بهيئته وثوبه يجلس أمام باب منزلنا

الداخلي في الحديقة ومعه عدليك الحاج سلمت عليهم وقال جدي:
ولدي قل لوالدك أنا بانتظار مشروعه!

تأملت في الكلام والمشروع الذي يشغلني هو الرواية فأسرعت
لإكمالها وبفضل المولى سبحانه وتعالى تم الانتهاء منها بفترة وجيزة
قبل موعد التسليم بيومين، لتكون أصغر رواية أدبية إسلامية كبرى
بمعانيها الإنسانية وأحداثها المتصاعدة.

ولا يسعني إلا تقديم الشكر والتقدير إلى أستاذتي الفاضلة الأدبية
الكبيرة رجاء حسين حافظ من جمهورية مصر الشقيقة التي كانت
معي خطوة بخطوة في مراحل الكتابة والمراجعة. والحمد لله رب
العالمين.

يتخلل النور الالهي أنسجته الرقيقة
أستنشق أنفاس رسول الله زفرها رحمة وضياء
من يوقد عتمة ليل الإنسان؟
كسر أوثانه، حرك لبه، ليسمو به نحو السماء.

المؤلف

الفصل الأول

1

رائحة عطر النبوة تملأ أنفه، وزاد من الأدعية الإيمانية يغذي قلبه قبل أذنيه.

فتى صحيح الجسم دائم التفكير والتأمل، له عينان واثقتان يعلوهما حاجبان كثيفان يوحيان بالقوة، بطين لكل علم مودع، حركة الأيمان التي تبحث عن تفسير كتاب الله في تحسس وديب، أضاء وجهه منذ احتضنه رسول السماء عند خروج أمه الطاهرة من جوف الكعبة، منذ همس في أذنيه وغذاه بنور علمه، فأخذه إلى داره ليقوم برعايته وتربيته.

وكانه يعد لمهمة شاقة، للقيام بدور مع رسول الله الذي نشأ في كنف عمه منذ كان في الثامنة من عمره بعد وفاة جده، فتحمل عمه وزوجته رعاية حبيب الله حينما بعثه بالرسالة، بين له خطورة مهمته منذ البداية:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، سيحتاج وزيراً ينصره ويساعده على القيام بمهام الدعوة، فخصومه في حال تخلف وشرك، جاهلية وضياع، تعصب قبلي، صراعات وحروب داخلية، عبادة الأصنام والأوثان، خشونة الطبع مع غطرسة قريش واعتزازهم بانتمائهم وذواتهم. إنه الأقرب إلى رسول الله نسبا.

صباحاً خرج من رحم أمه في جوف الكعبة، يشع بألق النور الإلهي الذي يحاربه عبدة الأوثان، حكام مكة يدعون الناس لجمع الهدايا الإجبارية التي تقدم للأصنام، مكة الراقدة في أحضان الجهل ككائن أنهكه التعب.

وعلى الجهل يقع معبدهم المقدس، الذي خرج منه هذا الفتى لتوّه وأخذ يقتل الجهل، في وجهه بشائر النور الإلهي وقبس النبوة، وفي أذنيه أدعية النبي المستجابة. وصورة لخدم المعبد، وقد صموا أفواههم بأربطة وهم يوقدون شرارة الحرب في الهيكل المظلم، حتى لا تلوّث أنفاسهم طهارتها.

يبلغ من العمر عشر سنوات، نهض من حجر النبي، أول ذكر آمن برسول الله، وصلى معه، وصدقه بما جاءه من عند الله

شديد الآدمة خاطب بعض المسلمين قائلاً: وقد علمتم موضعي من رسول الله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنّفني في فراشه، ويُمسّني جسده، ويُسّمني عَرَفَه، وكان يمضغ الشيء ثم يُلقمنيه.

كان أوفر الناس حظاً، وأطول صحبة لرسول الله، فمنذ ولد، وهو بين يدي محمد، قبل النبوة وبعدها، لم يفترق عنه، في سلم أو حرب، ولا في حلّ أو سفر، بل كان بين يدي النبي، وتحت سمعه وبصره، إلى أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى، وهو على صدره، حيث سكب آخر أنفاسه في الحياة، فقد صحب النبي صحبة متصلة أكثر من ثلاثين عاماً، لم يظفر بهذا الشرف أحد من المسلمين!

عندما استقرت أقدامه على الأرض أحس كأنه وصل إلى شيء، ألقى نظرة على الأشياء من حوله فرأى بين وحداتها تفاهما كان مفقوداً من قبل. وأحس كأن هذا القمر يشع في السماء يخاطب هذا الحجر الملقى على الأرض. ليس هناك شيء منفصل عن شيء. كل المخلوقات تواكبت في وضع واحد كتناسق قوس الله عند انتهاء المطر وظهور الشمس.

وقف متأملاً كأنه نسي المشي، ألقى نظرة على المعبد المقدس يحيطه الجهل فأحس غربته. هذا هو الشيء الوحيد المنفصل عن كل

ما حوله. وكأما اتفقت بعض الكائنات على خصامه. نزل عليه الليل أشد ظلمة وكأما الفجر على بقية الأشياء. وأحس الفتى أن قلبه ينبوع لكل هذا، فمن النبي صدرت إليه إشارة حار في معناها غيرت نظرتة للكون، فهو منذ بلغ رشده وهو يؤكد على القران الكريم. وقاده إليه الرسول وقال له: أنت مع القران والقران معك. وعلمه وتركه يعلم الناس مثلما علمه، وقدم النور المقدس لجهلهم، الكائن الأبدى المطهر في نظرهم.

وها هو فجأة ينظر إلى الحجر والقمر ويلحظ بينهما تفاهما وتناسقا. ويشعر أن سر التفاهم نبع من قلبه، يرى الليل جاثما جدا على جهلهم. عند ذلك همهم الفتى بحسرة وآهة تحمل غاية أسرار لذة الوصول وكل آلام جهد العلم والايمان فيها عبادة مثل الصلاة، وخشوع مثل الركوع وتحية لوجهه العظيم لقائل كلمات القران عرفه. ثم سار نحو بيت النبي...

عقد على بضعة النبي وهو في الخامسة والعشرين، صلى القبلتين، هاجر وشهد بدرا والحديبية وسائر المشاهد، وأبلى ببدر وأحد والخندق وخيبر بلاء عظيم، وأنه أغنى في تلك المشاهد، وقام فيها المقام الكريم، وكان لواء رسول الله بيده في مواطن كثيرة، وكان يوم بدر بيده حتى في فتح مكة.

قاتل المشركين مع رسول الله على كلمة التوحيد، وتنزيل الكتاب الكريم، وتثبيت دعائم النبوة ومبادئ الإسلام، فكان لسيفه دور متميز، ولجهاده أثر واضح في أن تعم كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله الجزيرة العربية وما والاها، وكان لثباته مع الرسول في كثير من المعارك التي عز فيها الناصر وقل فيها الصديق وكثر فيها العدو، أثر كبير في الانتصارات الكبرى التي عززت موقع الإسلام، وثبتت أركانه.

و لا عجب فهو ابن شيخ البطحاء وحمي الإسلام. كان أبوه
مشغولا في حماية ابن أخيه ودعوته منذ بزوغ نورها.
أبوه ذو هيبة شديد الوطأة على طغاة قريش، كثير الحب لمن
رباه.

2

خَفَّ جماعة من رؤساء قريش إلى شيخ البطحاء وعرضوا عليه أن يسلم لهم النبي لتصفيته جسدياً ويعطوه عوض ذلك عمارة وهو من أنبل فتيان قريش، وأصبحهم وجهاً، فسخر منهم وصاح بهم: واللهم ما أنصفتُموني أيها الحمقى، تبّأ لكم وسحقاً! أتريدون منّي أن أعطيكم روحي وولدي لتقتلوه، وتعطوني ابنكم أربيه لكم! ما لكم كيف تحكمون، أترجون منّي أن أستبدل عمارة بمحمد؟! فو الذي نفسي بيده لو أعطيتُموني العالم كلّه لما استبدلته بظفر من رجل محمّد، فإليكم عنّي، لا تكلموني، وإلا علوت رؤوسكم بالسيف.

ولم يكن في حياته شيء أعلى ولا أعز من محمد. لم يكن يناديه باسمه بل كان يناديه يا روحي كان يحبه قدر ما يحب الدنيا مضافاً إليه روحه.

غيوم ثقيلات يتنفس الجهل بين لواعجها فتتراكم وتزدحم وتطغى وتسود. ولطالما ضاقت هذه الحدود، فعطلت مواهب الإنسان التي أوتيتها لاكتشاف ينابيع الخير وراء الحدود. ولطالما طغت هذه الغيوم وتجهمت فمنعت الإنسان أن يسبح في اللجج ليشتد جرياً في مناكب الأرض. أما ينابيع الخير فهذه، وأما السماء واللجج ومناكب الأرض وما تحوي، ماهي إلا أكف العظماء الحقيقيين الذين مروا في هذه الأرض مرور الغمامات الخيرة فوق صحارى البيد!

غمامات تمر كالأمل المشرق في عتمة اليأس. وتهطل في جنبات الصحارى هطول الحياة في جفاف اليبس، ثم تمضي وهي تاركة وراءها الخضرة والنظرة والرواء والسقيا لقوم جياع عطاش!

عندما هل الفتى قبل البعثة وبعدها كان النبي يقبله بين العينين
الواثقتين، يقف على أطراف أصابعه لأن النبي كان أطول منه. وفي
أغوار عينيه السوداوين كان يرى كل مقدس. وشيئا مثل معبدهم على
قمة الجهل، يراهما سواد إلا الكعبة بعد أخيه النبي عنده مقدسة.
دخل الفتى دار النبي ولقيته أمه التي خاطبته بتحية أبيه لابن
عمه:

- هل جئت يا روعي؟

رد الفتى: نعم قرّة عيني وفؤادي - أين أخيه؟

ردت ببهجة وسرور، لعله يعمل مع سيدة قريش. ولم ينتظر قبلها
واستدار وخرج، كان يدري لماذا يبحث عن أخيه، وفي خارج الدار رأى
فرسا عربيا اشتراه أبوه في إحدى رحلاته التجارية من الجزيرة فهم أن
يركبه، لكنه أعرض وأثر أن يذهب ماشيا إلى أخيه.

وعند سيدة قريش سمع سهيل حسان جامح وضجيج غضب،
وكان الصوت صوت أبيه يهدر ويتدفق ثم يتقطع من الجهد، أحس
الفتى ذلك اليوم أن شغاف قلبه شديد الشفافية غير قادر على لمسه،
وعندما قارب موقعه سمع خطبته وكان معه بنو هاشم ورؤساء مضر
بمناسبة عقد قران رسول الله على صاحبة التجارة، فقال: الحمد لله
الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وعنصر مضر، وجعلنا
حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوبا وحرما آمناً، وجعلنا
الحكام على الناس. ثم إن محمدا بن عبد الله (ابن أخي) من لا
يوزن به رجل من قريش إلا رجح عليه... برّاً وفضلاً، وكرماً ومجداً
ونبلاً، فإن كان في المال قل، فالمال ظل زائل، ورزق حائل، وقد خطب
خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما عاجله وأجله من
مالي كذا وكذا، وهذا - والله - يعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

وتقدم الفتى من أبيه الذي كان يخطب، ومد يده إليه ضارعا:

- أبي. مبارك لأخي.

ثم هتف الرجل وأطرافه ترتعد:

- هل جئت يا روحي؟

هتف الفتى بينه وبين نفسه وهو يهز رأسه وعيناه تفيضان دموع الفرح: أصبت.. لم يعد ابن عمي، أصبحنا أخوة، نفسه نفسي، أصبحت لا أخشى عليه من الجهلاء. وتأوه تلك الآهة التي تحمل سر أسرار الوصول للقران...عبادة مثل الصلاة وخشوع مثل الركوع وتحية لوجه العظيم لقائل كلمات القران عرفه.

كان صوت أبيه المنقطع لا يزال يصل إليه في ظلمة ليل ذلك اليوم وهو يخاطب أخاه:

- هل رضيت يا روحي؟

هاج قوم الضجيج والغضب كأنهم يعترضون على عقد قران أخيه، تقدم الفتى من أخيه عند باب غرفته، احتضنه أستنشق منه رائحة المسك والعنبر، لاذ أخوه بين أحضانه كأنه لمس إنسانا لأول مرة ورأى شيخ البطحاء أخوتهما.. أدرك عمق الصواب الذي أتاه ابنه النبي الذي يلبس رداء النبوة وهو يحتضن أخاه، همس: - خير ما فعلت.

قطع نداءه وصاح بصوته الرخيم: - نعم أنا يا روحي، أنه (أنت) شخص لم تلد مثله النساء، أكاد أن لا أعرفه.

الأبناء لا يرثون من الآباء المال والثروة والأوصاف الظاهرية فحسب كملامح الوجه ولون العيون، وكيفيات الجسم بل يرثون كل ما يتمتع به الآباء من خصائص روحية وصفات أخلاقية عن

طريق الوراثة كذلك. فإن في مقدور كل معلم أن يرسم مصير الطفل ومستقبله من خلال ما يلقي إليه من تعليمات وتوصيات ما يعطيه من سيرة وسلوك و آراء وأفكار، فكم من بيئة حولت أفرادا صالحين إلى فاسدين، وفاسدين إلى صالحين.

الفتى معروف بالسماحة والبذل والجدود والعطاء والعطف والمحبة والفاء والتضحية في سبيل الهدف المقدس، هذا ما رياه عليه النبي إلى أعلى ذروة من ذرا الكمال الروحي. فقال ذات يوما: كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بالافتداء به. عندما كان النبي قبل البعثة يعتكف ويتعبد في غار حراء شهرا من كل سنة، كان الفتى يقول: أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة.

سأل النبي أحد مرات نزول الوحي: سمعت رنة، ما هذه الرنة؟

- هذا الشيطان ايس من عبادته. أردف رسول الله: انك تسمع ما اسمع وترى ما ارى إلا انك لست بنبي ولكنك وزير.

رافق النبي في كل مراحل نزول الوحي، ابتداءً من النداء السماوي الأول: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) واستمرت تلك المرافقة، كان الفتى كثير الاسئلة للنبي، فإذا سأل أجابه وإذا سكت ابتدأه، علّمه ألف باب من العلم. قال له: أنت أعلم الناس بالكتاب والسنة.

ركب شيخ البطحاء الحصان ومعه النبي للتجارة إلى الشام، سارع إليه راهب وقال له: أنصحك أن ترجع بابن أخيك من مكانك هذا وإن أدّى ذلك إلى ذهاب أموالك وخسارتك في تجارتك، فإني لا آمن عليه من دسائس الشرك ومكائد اليهود؛ فإنهم إن عرفوا الذي عرفته فلا يولّوا حتّى يلحقوا به الأذى، بل يغتالونه بكلّ نشاط وقوّة.

استدار بحصانه وعاد بأبن أخيه إلى مكة، بلغ خوفه عليه أنه كان يصحبه معه في فراشه كان ينقله في غلس الليل من مكان إلى مكان، ويمضي ليله ساهراً على حراسته لئلا يغتاله أحد، بعد اعلان النبي دعوته هبّت قريش عن بكرة أبيها فزعة كأشدّ ما يكون الفزع لإطفاء شعلة التوحيد. خافوا على آلهتهم وأصنامهم التي سخّر منها النبي ودعا إلى تحطيمها وتدميرها، فورمت أنافهم، وانتفخ سحرهم، وأجمعوا على مناجزته وإطفاء نور رسالته.

وقف شيخ البطحاء سدا منيعاً لحمايته؛ بعث النشاط والحماس في نفس ابن أخيه لإشاعة مبادئه، خاطب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقرّ منك عيوننا

ودعوتني وعلمت أنّك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثمّ أمينا

ولقد علمت بأنّ دين محمّد من خير أديان البريّة دينا

صمّم الشيخ على حماية النبيّ والذبّ عنه بجميع طاقاته، خرج لقريش وخاطبهم: كذبتم وبيت الله نخلي محمّدا ومأ نطاعن دونه ونناضل

ونصره حتّى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ركب رسول الله الحصان ومعه الفتى، أتى إلى الكعبة، أمره بالجلوس جنبها، صعد الرسول على منكبها، فقال له: انهض.

نهض ورأى ضعفه تحته، فقال له: اصعد على منكبها.

صعد حينها الفتى، نهض وتخيل لو شاء نال أفق السماء. صعد فوق الكعبة، وتنحى رسول الله، وناداه بصوته الرخيم: ألق صنمهم الأكبر، فalcاه.

لم يبق إلا صنم خزاعة! كان من نحاس، موتد بأوتاد من حديد إلى الأرض، جاءه صوت النبي: عالجه، ارم به.

رمى به الفتى فكسره.

أردف النبي: (إيه إيه) {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}.

أهل مكة ينظرون ويتعجبون، فقالوا: ما رأينا أسحر من محمد!

أنجز الفتى مهمته أراد أن ينزل، فألقى نفسه من صوب الميزاب، تأدباً وشفقة على النبي، وقع على الأرض تبسم!

سأله النبي علام تبسمت؟

قال: ألقى نفسي من هذا المكان الرفيع، وما أصابني ألم.

تبسم النبي للفتى قائلاً: كيف يصيبك ألم وقد رفعتك محمد، وأنزلك جبريل؟

وضع النبي يده اليمنى المقدسة على كتف الفتى، همس في أذنيه الواعيتين: المنادي لأمك هتف يوم ولادتك أنت من تكسر الأصنام وأول من تؤذن فوق بيت الله الحرام!

3

أخذ الفتى الفذ على عاتقه مسؤولية الحفاظ على كرامة الإنسان وحقه المقدس في الحياة الحرة الشريفة من خلال تفسيره كتاب الله، تنفيذ توصيات رسوله، تبديل الجهل الجاثم على العقول إلى نور مقدس يخرج الإنسان من الجمود الذي يؤدي به إلى الفناء.

كانت ثوراته مع النبي وبعد وفاته ضد الشرك والالحاد، الامتهان، طغيان الاستبداد، قاتل كل ظالم ومستبد وجاهل، ويظل الفتى أيقونة في ضمائر الأحرار، ينهلون من الفتى نهجه وخلقه وصموده في وجه الاستبداد. الفتى الشجاع، المقدم؛ لا يبارزه أحد إلا سقى الأرض من دمه، ويرى أن ألف ضربة بالسيف أهون عليه من ميتة على الفراش في غير طاعة الله.

كان النبي يفكر بمن تشاركه في دعوته وحجر للفتى القادم، يحتاج أم طاهرة كأمه التي ولدته في جوف الكعبة!

كاهن قريش ورقة بن نوفل أخبر بنت عمه السيدة خديجة وتنبأ بزواجها!

يا خديجة: سوف تتصلين برجلٍ يكون أشرف أهل الأرض والسماء.

- ردت باطمئنان: أنك قرأت صحف شيتٍ وإبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور، واثقة مما تنبأ.

وقفوا على باب خيرة نساء قريش شرفاً، وأحسنهنّ جمالاً، وأكثرهنّ مالاً، شديدة العفاف، عمرها أربعون، كبار قريش وسادتها يخطبونها، رفضتهم جميعاً، أبدت رغبتها بالاقتران من رسول الله؛ بعدما علمته

صادقاً أميناً، بعثت لخطبته، تزوجها في سن خمس وعشرين.

ربت الفتى في حجرها وعطرته من رائحة النبوة. بعد عامين من بعثة النبي في طريق عودته من معراجه شهر ربيع الأول، جاء أمين الوحي جبريل للرسول، سأله: يا جبرائيل هل لك من حاجة؟
- حاجتي أن تقرأ على خديجة من الله ومني السلام.

أبلغها.

قالت مستبشرة: إنَّ الله هو السلام، منه السلام وإليه السلام.

خديجة أول من أسلم من النساء وآمنت بدعوة النبي، انتشرت إشاعة اغتيال النبي في حملة من حملات عبدة الاوثان، هامت على وجهها في الوديان والصحاري المحيطة بمكة بحثاً عن حبيها، سالت الدموع على خديها، نزل جبرائيل على الرسول ورن مسمعه: ضجّت ملائكة السماء لبكاء خديجة، أدعُها إليك وأبلغها سلامي وقل لها بأنَّ ربّها يقرؤها السلام ويبشّرها بقصر في الجنة، لا صخب فيه ولا نصب.
دعا رسول الله الفتى وخديجة، استرق سمعهما وهما ينظران له يا فتى.. يا خديجة: أسلمتما لله وسلمتما له، إن جبرائيل عندي يدعوكما إلى بيعة الإسلام فأسلما تسلما وأطيعا تهديا.

- فعلنا وأطعنا يا رسول الله.

أردف النبي: إن جبرائيل يقول لكما: إن للإسلام شروطاً وعهوداً ومواثيق فابتدئنا بها شرط الله عليكما لنفسه ولرسوله أن تقولوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه، لم يتخذ ولداً ولم يتخذ صاحبة، إلهاً واحداً مخلصاً، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى الناس كافة بين يدي الساعة، ونشهد أن الله يحيي ويميت ويرفع ويضع ويغني ويفقر ويفعل ما يشاء وَيَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

- شهدنا.

سأل شيخ البطحاء من ولده في جوف الكعبة: يا طاهرة ما لي لا أرى الفتى يحضر طعامنا؟

- إن خديجة بنت خويلد قد تألفتها.

تبسم شيخ البطحاء وود أن يراه ويأكل معه، قال: والله لا أحضر طعاماً لا يحضره الفتى. أرسلت الطاهرة أخ الفتى قائلة: جنني به وحدثه بما قال أبوه.

- نعم يا أمي.

أنطلق أخوه راكضاً لدار خديجة، أخبرها.

نظرت خديجة للفتى وهمست بأذنيه: ولدي أذهب لأبيك، وسأكون بانتظارك بعد أن يأذن لك بالعودة.
مضى مع أخيه نحو أبيه..

سأل الفتى رسول الله يوم المُواخاة، لماذا تركتني بدون أخ؟

- انت اخي في الدنيا والآخرة، فلا يصلح لمُواخاتي سواك، ولا يصلح لمُواخاتك غيري،

لا عجب أن ظل اسمه علماً يلتف به كل مظلوم، وكل ناحية من النواحي الإنسانية ملتقى في سيرته!

خرج الفتى كراراً غير فرار نهاية غروب الشمس لا يراه أحد، بعد أن اتخذ رؤساء قريش قراراً بقمع الدين وإنهاء وجود النبي، سوف يبيت في فراش الرسول وهو يردد في نفسه: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

حاصر المشركون بيت النبي، هجموا منتصف الليل ينوون قتله،
اتجهوا إلى فُرَاشِهِ يَنْظُرُونَ، رفعوا الغطاء، تراجعوا وقد أخرستهم
الصدمة.

الفصل الثاني

4

كان الفتى محيطاً بالقرآن وعلومه؛ يرى فيه جميع الأحكام الشرعية؛ يردد: إِنَّ كُلَّ آيَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ عِنْدِي بِإِمْلَاءِ رَسُولِ اللَّهِ وَخَطِّ يَدِي. فهو بعد الرسول كلام الله الناطق، قلبه الواعي، يعلم جميع خصوصيات النزول من حيث الزمان والمكان، أقسم قائلاً: واللّه، ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت. سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت أبليلاً نزلت أو بنهارٍ، في سهلٍ أو جبلٍ.

كان يتلمذ للقران الكريم، مبتكراً في نظرته إلى الخلق والخلائق. اسلامه اسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهاد لرياضة النفس، وتمحيص الفكر.. والرجل الذي أتيح له أن يتلمذ لربه، ويتربى في حجر نبيه. ويصبح إماماً للمتقين من بعده.

قاتل الفتى مع النبي على تنزيل القران الكريم، صرع كبار رؤساء الشرك من قريش، ففي غزوة الخندق، خرج عمرو مقنعا في الحديد ينادي جيش المسلمين: من يبارز؟ صاح الفتى: أنا له يا نبي الله.

- أشفق النبي عليه: إنه عمرو، اجلس.

عاد عمرو ينادي: ألا رجل يبرز؟ أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟.. أفلا تبرزون إلى رجلا؟

قام الفتى مرة بعد مرة وهو يُسمع النبي: أنا له يا رسول الله.

النبي يكرر عليه مرة بعد مرة: اجلس إنه عمرو. يجيبه الفتى: وإن كان عمرا... أذن إليه.

مشى فرحا بهذا الإذن الممنوح كأنه الإذن بالخلاص. نظر إليه عمرو، أستصغره، أنف مناجزته، أقبل يسأله: من أنت؟

- عرفه اسمه دون زيادة.

أردف: ابن عبد مناف؟

- ذكر له أسم أبيه.

أقبل عمرو عليه يقول: يا ابن أخي.. من أعمامك من هو أسن، أني أكره أهريق دمك.

- رده الفتى: لكني والله لا أكره أهريق دمك.

غضب عمرو وأهوى إليه بسيف كأنه شعلة نار، استقبل الفتى الضربة بدرقته فقدتها السيف وأصاب رأسه، ضربه الفتى على حبل عائقه سقط ونهض، ثار الغبار، ما انجلى إلا وعمرو صريعا شطر نصفين والفتى يجأر بالتكبير وكأنها كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذي لا يؤسى على مصابه، ما قتله الفتى إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين، عرض عليه الكف عن القتال فأنف، قال: إذن تحدث العرب بفراري.

ناشده الفتى: يا عمرو. إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه أحدهما.

رد عمرو: أجل.

أردف الفتى: إني أدعوك إلى الإسلام أو إلى النزال.

- ولم يا ابن أخي، فوالله ما أحب قتلك. لم يكن له بعد ذلك من إحدى اثنتين: يقتله أو يقتل على يديه.

استنبط من آيات القرآن أنه، ليس على وجه الأرض اكرم على

الله من النفس المطيعة لأمره، في مجتمع الجاهلية تفتت ظاهرة انعدام الأمن وسفك الدماء، مما دعاه لتوجيه الخطاب إلى العقول أين ما كانت: أن الله بعث محمدا نذيرا للعالمين وأميناً على التنزيل وشهيدا على هذه الامة، وأنتم يا معشر العرب على غير دين وفي شر دار تسفكون دماءكم. وتقتلون أولادكم، وتقطعون أرحامكم، وأن سمات الدنيا في ظل انعدام الأمن تكون متجهمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة وشعارها الخوف ودثارها السيف.

والحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه، لمن ورده، وأعز أركانه على من غالبه فجعله أمنا لمن علقه وسلما لمن دخله.

5

شغفت خديجة بالنبي كما شغف بحبها، يحدث نفسه: لا أتزوج عليها ما دامت حيه يا حلو اللمي مهجة فؤداي، خديجة: جائي الوحي، رأيت في منامي رؤيا كذا وكذا.

يا مغرمي تفديك نفسي، أخبرني ابن عمي ورقة بأني أتزوج رجلا يكون أشرف أهل الأرض والسماء، صدقت أيها الصادق الأمين.

يا نبي الله: أبنتك لا أشعر بثقلها في بطني، تحدثني وأحدثها!

يا عزيزتي: خلقت نور فاطمة قبل أن تُخلق الأرض والسماء!

- يا نبي الله، ليست هي إنسية؟!

يا خيرة النساء: فاطمة حوراء إنسية.

كيف هي حوراء إنسية؟

خلقها الله عزّ وجلّ من نوره قبل أن يخلق آدم، إذ كانت الأرواح، فلما خلق الله عزّ وجلّ آدم عرضت على آدم.

- أين كانت فاطمة؟

كانت في حقّة تحت ساق العرش.

- ما كان طعامها؟

التسبيح والتقديس والتهليل والتحميد، فلما خلق الله عزّ وجلّ آدم وأخرجني من صلبه، وأحبّ الله عزّ وجلّ أن يخرجها من صلبي، جعلها نفّاحة في الجنّة، وأتاني بها جبرئيل فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، يا محمّد، إنّ ربّك يقرئك السلام.

قلت: منه السلام وإليه يعود السلام.

يا محمد، إن هذه التفاحة أهداها الله عزّ وجلّ إليك من الجنة. فأخذتها وضممتها إلى صدري، يا محمد! يقول الله جلّ جلاله: كلها. ففلقتها، فرأيت نورا ساطعاً ففزعت منه، يا محمد ما لك لا تأكل؟! كلها ولا تخف! فإنّ ذلك النور للمنصور في السماء، وهي في الأرض فاطمة.

أنجبتها خديجة في العشرين من جمادى الآخرة السنة الخامسة من البعثة، زهراء بتول طاهرة مثلها، بيضاء مشرقة كأنها القمر الأزهر.

نشأت بضعة الرسول في دار مهبط الوحي بين حضان النبي وحجر خديجة ثمانية سنوات، أبوها يكثر تقبيلها، يناديها: نور عيني، ثمرة فؤادي، روعي.

الصادق الأمين يجول في خلده من كفؤ لها؟

خطبها ثلاثة من صحابة النبي، ردهم دون حرج قائلاً: إنّها صغيرة، أنتظر بها القضاء، نزول الأمر من السماء!

ها رائحة عطر النبوة يستنشقها كل من رأى وقابل الفتى، النبي يعلمه تأويل القرآن وتفسيره، ناسخه ومنسوخه، محكمه ومتشابهه، خاصّه وعامّه، ظاهرة وباطنه، ودعا الله له يعطيه فهمه وحفظه وعلمه.

غدا الفتى أعلم الناس بالقرآن... كان شاباً يافعا وولاه النبي قضاء اليمن، يعلم بالإلهام الفتى الرباني، انه اقضى الأمة، ندبه رسول الله! جاء مسرعاً يمشي مشي النبي: ندبتني يا رسول الله للقضاء وأنا شاب ولا علم لي بكل القضاء.

- نظر إليه بمحياه المستبشر ونور عينيه البراقتين، حرك شفثيه،
نطق لسانه الطاهر: ادن مني.

دنا منه. ضرب على صدره بيده اليمنى، دعا: اللهم اهد قلبه
وثبت لسانه.

قال الفتى: فما شككت في قضاء بين اثنين بعد ذلك المقى.

6

في السنة العاشرة للبعثة وفي شهر رجب استيقظ النبي معتصر القلب، ضائق النفس، حين ألم المرض بمريبه وحامي دعوته، أرسل شيخ البطحاء إليه الفتى يدعو للدار وصلا وقريش مجتمعة حوله، تفوه ببصيرة نافذة من فراشه: يا معشر قريش! أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب، وفيكم السيّد المطاع، وفيكم المُقَدِّم الشجاع، وأعلموا أنكم لم تتركوا نصيباً في المآثر إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدرتتموه. وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية - الكعبة - فإن فيها مرضاة الرب، صلوا أرحامكم، ولا تقطعوها، فإن صلة الرحم منسأة في الأجل، وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكت القرون قبلكم.. أجيوا الداعي، وأعطوا السائل، وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة. وإني أوصيكم بمحمّد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، واستطرد قائلاً: وأيم الله، لكأنّي أنظر إلى صعاليك العرب والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وعظّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، ولكأنّي به، وقد محضته العرب ودادها، وأعطته قيادها. التفت لمحمد وخاطبهم: والله لا يسلك أحد سبيله إلا رُشد.. ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، انصروا محمّداً فإنه الهادي الى سواء السبيل ولو أنّ الله تعالى أحرّ أجله وأمدّ في عمره، ولو كان للنفس مدة، وفي أجلي تأخير؛ لكففت عنه الهزاهز، ولدافعت عنه الدواهي.

بعد خروج الجالسين، ومنهم المشركون الذين يتلهفون إلى موته، ليميلوا على محمّد وصحبه، ميلاً واحدة، استدار بوجهه إلى بني هاشم، بعد أن خلا المجلس، رن صوته مسامعهم: يا معشر بني هاشم!

أطيعوا محمداً وصدّقوه، تفلحوا وترشدوا، ونظر إلى أربعة من الهاشميين، ولديه، وأخويه. همس النبي في أذن الفتى، لا تفارقه.

خرج الرسول من دارعمه وعيناه غارقتان بالدموع، لم ينم تلك الليلة، نزل الوحي: ذهب ناصرُك من الدنيا، فهاجر؛ في الصباح، فاضت الروح إلى بارئها، شمل الحزن جميع شعاب مگّة، بكى النبي، حزن حزناً شديداً، لحقه الرسول، رأى عمّه مسجى، مدّ إليه يده قائلاً: يا عمّاه، وصلتَ رحماً وجزيت خيراً، يا عمّ، لقد ربّيت وكفلت صغيراً ونصرت وآزرتَ كبيراً، أمّا والله لأستغفرنّ لك، ولأشفعنّ لك شفاعة يعجب لها الثقلان. وأبتاه! وأبا طالباه! واحزنناه عليك يا عم كيف أسلو عنك، يا من ربّيتني صغيراً، وأحببتني كبيراً، وكنتُ عندك بمنزلة العين من الحدقة، والروح من الجسد؟!!

فتى من قرية تتناثر هزيلة عجفاء، كثيباً سوداء، تباعد ما بينها مجاهل يضل فيها الدليل، ويعبس وجه الأرض. فوق ذلك خاضعة لقسوة المناخ، طغيان الفاقة، بعد الاسفار، العزلة عن العالم.

نشأ الفتى على الشهامة، الأخلاق، الإنسانية المستنبطة من القرآن الكريم، خصائص حفزته على فهم عبقرية النبي، تضحية أشبه بصنع المعجزات. وهبه الله فهماً ثابتاً وعقلاً حكيماً، لساناً بليغاً، ذكاء مفرطاً، فارساً يتمتع بأداب الفروسية، تصدى لقتله وغد من الاشرار، فأخذ الفتى بتلابيبه، ألقاه على ظهره، وجلس على صدره وجهه إلى وجهه، وحين رأى الوغد في لمعان السيف وأيقن أنه مقتول لامحالة بصق في وجهه، قام الفتى وأخلى سبيله؛ خشية أن يكون قتله غضباً لنفسه لالله.

يرى هذه المبادئ مقترنه بالأيمان الراسخ بالشريعة الإسلامية، تنتج إبداعاً في ميدان القانون الإنساني للحرب، لخصه قائلاً: ما يكافأ عدوك

بشيء أشد عليه من أن تطيع الله فيه.

كان في كل الحروب والمعارك التي خاض غمارها يصدر أوامره لقادة الجيش، ناطقا عن القرآن والنبى، لسانه يصعد بالحق قائلا: لا تقتاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة وتركم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم؛ فاذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل فاذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترنا ولا تدخلوا دارا إلا بإذني ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم في معسكرهم ولا تهيجوا امرأة بأذى.

متى تظهر أخلاق الرجال؟

يقول: والله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئى وذلك أحب إلي من قتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها؟

غرس النبى في نفسه سياسة العفو التي استنبطها من كتاب الله، ناهز ثلاثة وستين سنة، وهو على فراش الشهادة تفوه عن قاتله: إن أبق فأنا ولي دمي، وإن أفنَّ فالفناء ميعادي، وإن أعف فالعفو لي قربة وهولكم حسنة فاعفوا (ألا تحبون ان يغفر الله لكم) العفو عنده عن المقرر لا المصر على الحرب، أحسن الإحسان، تاج المكارم، زكاة الظفر، العفو من موجبات المجد، العفو انتصار.

يرى بأن تعاليم الإسلام السمحة قادرة على الوصول إلى القلوب والعقول دون حاجة إلى فرضها بالقوة، ما السيف إلا أداة لحماية الدعوة. لا لنشرها، يردد على المسلمين: من أفضل النصح الإشارة بالصلح.

خطت الزهراء حياةً مليئةً بالعظمة والجلال مع قصر مدتها، بنتاً، زوجةً، أمًّا، مبلغةً، فقيرةً، تقوم بالأعمال المنزليَّة، نزل الوحي على النبي بالآية: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ توقعت نزول الآية فيها، توقفت عن مناداته بـ (أبي)!

احتضنها، قبلها، طلب منها أن تناديه بأبي، نطقت بعفويه وبراءة: لا يا رسول الله.

رد عليها بصوته الهادئ: يا فاطمة.. إنَّها لم تنزل فيك ولا في أهلِكَ ولا في نسلِكَ، أنت منِّي وأنا منك، إنَّما أنزلت في أهل الجفاء والغلظة من قريش، قولي: يا أبة، فإنَّها أحيا للقلب، وأرضى للربِّ، متعلقة تعلقًا فريدًا بأبيها، كئانها بأمِّ أبيها، تسعى في حاجاته على الدوام، متى احتاج الرسول إلى أيِّ شيء من طعام ومداوة جروح وإزالة همِّ نجد الزهراء حاضرة بين يديه تلبيه دون أن يطلب.

ابنة أبيها العزيزة المدللة لا تفصح عن مكنوناتها لسواه قبل زواجها وبعده، وبقي الرسول الإنسان الأوَّل المتربِّع على عرش قلبها طوال حياتها.

كان الرسول في مكَّة قبل الهجرة في أوائل سني الدعوة العلنيَّة، معاداة قريش ومواجهتها له تزداد حِدَّة يومًا بعد يوم، تجرَّؤوا عليه إلى حدِّ كانوا يأمرُون صبيانهم برميهِ بالحجارة، يضعون سلى البعير على ظهره وهو ساجد يصلي، فاطمة بعمر السادسة، خرجت مسرعة إلى الكعبة حيث الرسول يصلي، أزالته عنه سلى البعير، وانبرت بكلِّ شجاعة في تأنيب أرباب قريش وذمَّهم، تفتتح أساريها وينشرح

وجھها بوجه أبيها، تنشط قواها وهي تزيل بمنديل العطف والحنان
غبار الهم والحزن عن وجه أبيها.

في وقت كانت تحتاج فيه إلى الأم، تحوّلت إلى أم لأبيه! وتحافظ
عليه وتهتمّ به اهتمام الأم بولدها الوحيد.

عندما أحسّ النبيّ بالغبّة في عام الحزن، بقي وحيداً مكسور
القلب، رغم صغر سنّها وكثرة المصاعب والمحن التي مرّت بها، كانت
سنده، هاجرت معه من مكة، تولت مهمة تريضه في حروبه المتتالية،
تحملت المسؤولية تجاه والدها وتجاه الرسالة كاملة وعوضت أبيها
الجليل عن فقدّه أمّها خديجة.

ذهبت في معركة الخندق تحمل لأبيها كسرة خبز خبزته ليسدّ
جوعه، قبلها في وجنتيها، همس في أذنيها: أَمَا إِنَّهُ أَوَّلَ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَّ
أَبِيكَ مُنْذُ ثَلَاثَ.

ما رأيك يطل عليك الفتى العالم المفكّر، الأديب الإداري، الحاكم
القائد الذي يترك للناس والحكّام وذوي المطامع والجيوش يتأمرون به
ليقبل عليك فيهزّ فيك مشاعر الإنسان الذي له عواطف وأفكار،
فيهمس في قلبك هذه النجوى الرائعة بما فيها من حرارة العاطفة
الكريمة قائلاً: فقدّ الأحبّة غربة.

بكي النبي بعد خمسة وعشرون عاماً على من وهبته مالها، قلبها،
روحها، أم الزهراء المملوءة بالدفء والمحبة، مربية الفتى خديجة.

سالت دموعه على خديه الشريفين، يردد: آمنت بي حين كفر بي،
وصدقتني حين كذبتني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس،
ورزقتني الله ولدها، قبل شهرين وافت المنية عمه شيخ البطحاء،
بعده توالى عليه المصائب من قومه، آذوه أشدّ الأذى، نالوا منه

مالم ينله من قومه. أعترضه سفيه من سفهاء قريش، نثر على رأسه التراب، دخل بيته والتراب على رأسه، استقبلته أم أبيها غسلت عنه التراب ودمع عينيها يتساقط كزخات المطر.

احتضنها: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك، ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات شيخ البطحاء.

اليوم يفجع بحبيبه خيرة النساء، العطوفة الرقيقة، خديجة طريحة الفراش، خيم عليها شبح الموت، كانت تمرضها أسماء بنت عميس رأتها تبكي، سألتها: أتبكين وأنت سيدة نساء العالمين؟

أنت زوجة النبي؟

مبشرة على لسانه بالجنة؟

- ما لهذا بكيت، ولكن المرأة ليلة زفافها لا بد لها من امرأة تفضي إليها بسرّها وتستعين بها على حوائجها، وفاطمة حديثه عهد بصبا، وأخاف ألا يكون لها من يتولى أمرها حينئذ!

تنحبت أسماء بالبكاء، خاطبتها بصوت حزين: يا سيدتي لك عهد الله إن بقيت إلى ذلك الوقت أن أقوم مقامك في هذا الأمر.

دخل عليها رسول الله، عانقها، أسى الفراق واضح على محياه الشريف، وضعها في حجره، مسح رأسها بكفيه، نظرت بعينين غائرتين لعينيه الذابلتين من كثرة البكاء كلمته بصوت ضعيف: يا رسول الله اعف عني إن قصرت في حقك!

- حاشا، ما رأيت منك إلا خيراً، وقد سعيت كل سعيتك، وتحملت الأذى، وبذلت مالك في سبيل الله.

أردفت قائلة: يا رسول الله أوصيك بالزهراء ستكون هذه البنت

غريبة ویتیمه بعدي لا تؤذها امرأة من قريش ولا يضربها أحد على وجهها، ولا يرفعنَّ أحد صوته في وجهها ولا ترى مكروهاً. يا رسول الله اسمع وصاياي، إني أقولها لابنتي فاطمة وهي تقول لك فيني مستحية منك يا رسول الله.

قام النبي، قلبه يعتصر وضاق صدره على فقدها، خرج من الحجرة. دعت فاطمة، جاءتها بعد ما كففت دموعها: نعم أماه حبيبتي.

- يا حبيبتي وقرّة عيني قولي لأبيك إن أمي تقول أنا خائفة من القبر أريد منك رداءك الذي تلبسه حين نزول الوحي تكفّني فيه. خرجت الزهراء نحو أبيها، عادت تبكي، ذكرت لأبيها طلب والدتها. نهض النبي مقهوراً، أخرج الرداء، سلمه إلى فاطمة.

رجعت البضعة لأمها وهي تشم رائحة الرداء وتقبله، مسحت الدمع من عينيها، سلمته إلى أمها.

استبشرت خديجة سرّت به سروراً عظيماً، فاضت روحها الطاهرة.

أخذ رسول الله في تجهيزها، غسّلها، حنطها، لما أراد أن يكفنها هبط الأمين جبرائيل كلم محمداً: يا رسول الله إن الله يقرئك السلام ويخصّك بالتحية والإكرام ويقول لك: يا محمد إن كفن خديجة من عندنا فإنها بذلت مالها في سبيلنا. قدم الكفن للنبي، أردف: يا رسول الله هذا كفن خديجة وهو من أكفان الجنة أهده الله إليها.

كفنها رسول الله بردائه الشريف أولاً وبها جاء به جبرائيل ثانياً. دفنها في الحجون، نزل رسول الله في قبرها.

كانت الزهراء تلوذ بأبيها تدور حوله، تسأله: يا رسول الله أين أمي؟

- النبي، صمت!

دارت تسأل الفتى، كل من مع أبيها تسأله ذات السؤال؟!

هبط جبرائيل على الرسول كلمه: إن ربك يأمرك أن تقرأ على فاطمة السلام وتقول لها: أمك في بيت من قصب، كعابه من ذهب، وأعمدته من ياقوت أحمر، بين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران.

خرج النبي من القبر، ضم فاطمة لصدره، همس في أذنها همسا لا يسمعه إلا الفتى: هذا ما قاله الوحي. هدأت، ردت: إن الله هو السلام ومنه السلام، وإليه يعود السلام.

الفصل الثالث

صار الفتى محل حقد قريش لأنه قتل أبطالها في بدر، وأحد، والخندق. أصروا على حرب محمد وأنصاره، كان سيف الفتى لهم جواباً. تعرض أنصار الرسول إلى إيذاء المشركين، تعذيب جسدي، القاء أحدهم في الصحراء في شدة الحر، فرض الحصار اقتصادياً واجتماعياً عليهم. بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة والدعوة في مكة المكرمة، ودع النبي وطنه بعاطفة جياشه، استحضر مكانتها العظيمة في وجدانه؛ البيت الحرام، فقال مودعاً: (ما أطيبك من بلدةٍ وأحبك إليّ، ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك)، هاجر ليلة الخميس في السابع والعشرين من صفر السنة الرابعة عشرة من البعثة، دخل المدينة المنورة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، يردد: (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا). منذ اللحظات الأولى للهجرة كان رسول الله مطمئناً لا يحس في نفسه بأي قلق أو اضطراب، حتى أنه طمأن رفيق سفره عندما وجده مضطرباً في اللحظات الحساسة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. أوصى النبي الفتى في تلك الليلة: أد أمانتي على أعين الناس ظاهراً. وقل: ألا من كان له قبل محمد أمانة أو وديعة فليأت فليؤد إليه أمانته. وأوصاه بالفواطم، فاطمة الحبيبة لديه والأثيرة عنده، فاطمة بنت أسد، فاطمة بنت الزبير، فاطمة بنت الحمزة، لما جاء الدليل، نزل النبي وصاحبه من الغار وركبا البعيرين وتوجها من أسفل مكة إلى يثرب سالكين الخط الساحلي.

مكث الفتى في مكة ثلاث ليال وأيامها أدى عن رسول الله الودائع، ثم لحق به.

خرج الفتى بجراًة جهارا من مكة مصطحبا الفواطم معه، أبو واقد الليثي سائق القافلة، هاجت عداوة قريش وتساءلوا: كيف يخرج الفتى الهاشمي منفردا بالنساء ظاهرا غير هيباب ولا ننالہ بسوء ولا نرده صاغرا؟ إن هذا لذل وعار علينا إلى الأبد، انتخبوا من فرسانهم ثمانية ملاحقته وعودته. الليثي يتلفت يمينا وشمالا أسرع في المشي، استولى عليه الخوف من قريش، ناداه الفتى: ارفق بالنسوة يا أبا واقد، ثم نحاه عن القيادة وأخذ يسوق القافلة بنفسه ويردد: وليس إلا الله فارفع ظنك.. يكفيك ربُّ الناس ما أهمكا، اعترض ثمانية فرسان ملثمون طريق الفتى، سحب سيفه من غمده، صاح بوجههم خلّوا سبيل الجاهد المجاهد....آليت لا أعبد غير الواحد أنيخت الإبل وتقدم الفتى أنزل النسوة، دنا القوم، استقبلهم منتضيا سيفه. انتاب الفواطم الذعر والخوف، يتسائلن: هل يستطيع الفتى مقاومة ثمانية فرسان؟

ملامح الشجاعة عليه ظاهرة ولو لم يعلم الرسول أنه كفؤ لكل من يعارضه لما كلفه بتلك المهمة، خاطبه الملثمون: ظننت انك يا غدار ناج بالنسوة ارجع لا أبا لك. أجابه بهدوء: فإن لم أفعل؟ أردفوا: لترجعن راغما أو لترجعن بأكثرك شعرا وأهون بك من هالك.

دنوا من المطايا ليثوروها، حال الفتى بينهم وبينها فاهوى له جناح بسيفه فراع عن ضربته رواع عارف بالفنون الحربية ماهر فيها وسنه لم يتجاوز العشرين وضرب جناحا على عاتقه ففقد نصفين حتى وصل السيف إلى كتف فرسه راجل وجناح فارس فلما انحنى جناح لم يمهله الفتى حتى يعتدل، عاجله بأسرع من لمح البصر وهو منحن بضربة على عاتقه قبل أن يعتدل قدته نصفين، تفرق القوم عنه وقالوا: احبس نفسك عنا يا نفس محمد. أجابهم: إني منطلق إلى

أخي وابن عمي رسول الله فمن سره أن أفري لحمه وأريق دمه فليدن مني. هداً روع النسوة وعلمن أنهن بصحبته في منجاة من كل خطر.

أطلقت المطايا ثم سار ظافرا حتى نزل ضجنان فلبث بها يومه وليلته ولحق به نفر من المستضعفين من المؤمنين، بات ليلته تلك حتى طلع الفجر وصلى بهم ثم سار لا يفترعن ذكر الله هو ومن معه، يسير بالنسوة نهارا، يختبئ ليلاً، تفترت قدماه من شدة الحر وكثرة المشي، عندما وصل ورأى حالته، جرت دموعه على لحيته المقدسة، اعتنقه، مسح بيده على قدميه.

قال الفتى: لم أشتك بعد ذلك ما كنت فيه.

بعد ثمانية أشهر من دخول النبي إلى المدينة يوم الحادي عشر من شهر رمضان آخى بين المهاجرين والأنصار، اختص الرسول بالفتى أخاه.

فتى عظيم، لم يعرف فتى شجاعاً مثله منذ ظهور الإسلام إلى اليوم؛ ما كان إلا على حق ولو تألب عليه الخلق في أقاليم الأرض جميعاً، وما كان عدو القرآن إلا على باطل ولو ملأ السهل والجبل. حمل من الخصال والخصائص الشخصية ما جعله بحجم الإنسانية، اختزن في شخصيته كل عناصر الجمال والكمال والسمو ما جعله ملهماً للإنسان.

غزارة علمه وسموه الفكري والأخلاقي فرضا له هذا الحضور الإنساني، النور يجتذب إليه كل من أضناه الظلام، والماء يجتذب العطاش إلى مشرعه. فتى ربيب القرآن، علمه أخوه ونفسه بأمر الله كيف يكون الإنسان، حاكماً، حكيماً، مشرعاً، محارباً، مصلحاً. منذ الوهلة الأولى له في الإسلام برز إسهامه الفكري والعملية في تعزيز وتطوير التجربة الإسلامية في مضمار القانون الانساني للحرب، بلور آلية التعامل مع الخصم في إطارها العام عبر الدعاء أولاً، يدعو بهذه الكلمات: اللهم إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا للحق. نسخ رسول الله أول سورة براءة قبل فتح مكة، كتب إليهم كتاباً يحذرهم بأساً وينذرهم عذاب ربه، ويعدهم الصفح ويمنيهم المغفرة، عرض على جميع أصحابه المضي إليهم، رأى فيهم التثاقل إلا الفتى! ندب الفتى يتوجه بما خطت أنامله الشريفة، هبت نسيمات العطر السماوي، هبط الوحي: يا محمد إنه لا يؤدي عنك إلا رجل منك.

همس الرسول في أذن الفتى ما جرى، وجهه بكتابه ورسالته إلى أهل مكة.

حرك الفتى شفتيه: سمعا وطاعة يا رسول الله.

أق الفتى مكة، أبلغهم رسالة النبي، كل من يلقاه منهم يهدده، يتوعده، يبدي البغضاء، يظهر له الشحنة، فتى لا ينثني، نفذ ما طلبه منه رسول الله.

أصبح الفتى شابا مكين البنيان، حافظا لتكوينه المكين حتى ناهز الستين. شاب ربع أميل إلى القصر، أسمر، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها، واضح البشاشة، أعيد كأنما عنقه أبريق فضة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبع الضاري لا يتبين عقده من ساعده كأنها أدمجت أدماجا. أبجر البطن يميل إلى السمنة في غير إفراط، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، شثن الكفين، يتكفأ في مشية كأنها مشية النبي. تمنى خطبة الزهراء إلا أنه لا يملك شيئا يليق بمقام العروس ومقام والدها الحبيب.

فاطمة الزهراء بلغت مبلغ النساء، برزت شخصيتها وتبوأت مكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي، وجهها كوجه القمر والشمس الضاحية، مشكاة كأنها كوكب دري، جمالها وحسنها لا يضاها الحسن والجمال. استنارت في سماء الرسالة شمس جمالها، وتم في أفق الجلالة بدر كمالها، امتدت إليها مطالع الأفكار وتمنت النظر إلى حسنها أبصار الأخياري، وخطبها سادات المهاجرين والأنصار، يسألها الرسول رأيتها؟ شدة أدبها تجعلها تولى وجهها عندما يسألها أبوها، تبدو عليها الكراهة والرفض.

النبي يقبل هجعة الغيث في قلب العمام في جبينها، يفهم رفضها. أعرض عن كل من خطبها بقوله: أنتظر أمر الله فيها.

الشاب يعلم، لكنه لا يستطيع يفعل شيئا؛ لقلته حيلته اكتفى

بالصبر والألم الذي أدمى قلبه. شجعه الأنصار: تقدم لخطبتها، تملك حبك لآبيها، لم تعبد الأصنام، أول من أسلم، فديته بنفسك، نزلت في كرائمك بعض الآيات، أعلم المسلمين بالقران وتفسيره، ألقى الأمة الحق معك أين ما درت، ماذا تنتظر؟

تقدم الشاب طالباً يدها، كان قليل المال، دخل على الرسول، نطق باستحياء: قَدْ أَحْبَبْتُ مَعَ مَا (قَدْ) شَدَّ اللَّهُ مِنْ عَضْدِي بِكَ أَنْ يَكُونَ لِي بَيْتٌ وَأَنْ تَكُونَ لِي زَوْجَةً أَسْكُنُ إِلَيْهَا وَقَدْ أَتَيْتُكَ خَاطِباً رَاغِباً أَخْطُبُ إِلَيْكَ ابْنَتَكَ فَاطِمَةَ.

تهلّل وجه النبي فرحاً وسروراً، حرك شفّيته بابتسامة سعيدة، نطق بصوته الشجي: أَبْشِرْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ زَوَّجَكهَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُزَوَّجَكهَا مِنَ الْأَرْضِ. أردف: عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْكَ.

دخل الرسول على ابنته، سألها رأيها؟

سَكَتَتْ حَيَاءً وَخَجَلًا فِي حَضْرَةِ أَبِيهَا، لَمْ تُوَلِّ وَجْهَهَا وَلَمْ يَرَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ كَرَاهَةً، نهض من عندها وهو يردد ويسمعها: اللَّهُ أَكْبَرُ سَكُوتُهَا إِفْرَازَهَا.

خرج زفّ خبر الموافقة إلى الشاب معلناً مباركته زواجهما. سأله الرسول: فَهَلْ مَعَكَ شَيْءٌ أُزَوِّجُكَ بِهِ؟

- فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا يَخْفَى عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِي شَيْءٌ أَمْلِكُ سَيْفِي وَدِرْعِي وَنَاضِحِي وَمَا أَمْلِكُ شَيْئًا غَيْرَ هَذَا.

قال النبي: أما سيفك فلا غنى لك عنه، تجاهد به في سبيل الله، وتقاتل به أعداء الله، وناضحك تنضح به على نخلك وأهلك، وتحمل عليه رحلك في سفرك، ولكنني قد زوجتك بالدرع ورضيت بها منك، بع الدرع واثنني بثمان!!

باعه وجاء بأربع مئة وثمانين درهماً صدق فاطمة. دفع النبي قسماً من مال الصداق إلى بعض أصحابه ليجهزوا بيت فاطمة، قسم تركه مع بعض زوجاته ثمن وليمة العرس، خصص قسماً من المال لشراء الطيب لفاطمة.

أما جهاز منزل فاطمة والشاب، الأشد تواضعاً وزهداً، فَمِصَّ بِسَبْعَةِ دَرَاهِمَ، خِمَارٍ بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ، قَطِيفَةَ سَوْدَاءَ خَبْرِيَّةٍ، سَرِيرٍ مُزْمَلٍ بِشَرِيطٍ، فِرْشَيْنِ حَشُو أَحَدِهِمَا لَيْفٌ، الْأَخْرَ مِنْ جَزِّ الْغَنَمِ، أَرْبَعِ مَرَافِقٍ مِنْ أَدَمِ الطَّائِفِ حَشُوهَا إِذْخِرَ، سِتْرٍ مِنْ صُوفٍ، حَصِيرٍ هَجْرِيٍّ، رَحَى الْيَدِ، مِخْضَبٍ مِنْ نُحَاسٍ، سِفِيٍّ مِنْ أَدَمٍ، قَعْبٍ لِلْبَيْنِ، شَيْءٍ لِلْمَاءِ، مِطْهَرَةٍ مُزَقَّتَةٍ، جَرَّةٍ خَضْرَاءَ، كِيزَانٍ خَزَفٍ.

بعد شهر واحد، أخبره أخوه من أبيه: مَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ كَفَرَجِي بَتْرُوجِكَ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ، يَا أَخِي فَمَا بَالُكَ لَا تَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ يَدْخُلُهَا عَلَيْكَ!

بدت ملامح السرور والرجاء على وجهه، أجابه: وَاللَّهِ يَا أَخِي إِنِّي لِأَحِبُّ ذَلِكَ وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ مَسْأَلَتِهِ إِلَّا الْحَيَاءُ مِنْهُ.

اصطحبه لزوجته الرسول، طلبا منها أن تتولى المهمة. تلعثت هنيهة، أخبرت النبي، تبسم وخرج للشاب قائلاً: نَعَمْ وَكَرَامَةٌ أَدْخَلَهَا عَلَيْكَ فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ أَوْفِي لَيْلَةٍ عَدِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

أمر الرسول نساءه بفرش البيت وتزيينه، تطيبت العروس انصرفت شمس الغروب، أقام النبي الوليمة بما تبقى من دراهم الصداق، أكل عموم المسلمين من الوليمة ببركة الرسول.

زفت فاطمة الحوريّة على بغلة الرسول الشهباء، الصحابي سلمان يجرها، النبي يسوقها، أخوته وأهل البيت يمشون خلفها مشهريين

سيوفهم، نساء النبي قدامها، يَرْجُزْنَ وينشئن الأشعار ويُرِدِّدْنَها،
والرجال تقول الله أكبر.

وصلوا المنزل نادى النبي أم سلمة: هَلُمَّي فَاطِمَةَ.

أنزلتها، أَتَتْ بِهَا تَسْحَبُ أَدْيَالَهَا، الزهراء تَصَبَّبَتْ عَرَقًا حَيَاءً مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ، عثرت، نظر النبي إليها قائلاً: أَقَالَكَ اللَّهُ الْعَثْرَةَ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَقَفَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَشَفَ الرِّدَاءَ عَنْ وَجْهَهَا حَتَّى رَأَاهَا الشَّابُّ،
أَخَذَ يَدَهَا وَضَعَهَا فِي يَدِ الشَّابِّ، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي ابْنَةِ رَسُولِ
اللَّهِ نِعْمَ الزَّوْجَةُ فَاطِمَةُ، وَيَا فَاطِمَةَ نِعْمَ الْبَعْلُ انْطَلَقَا إِلَى مَنْزِلِكُمَا.

أنطلق الشاب معها يد بيد، جَلَسَتْ فِي جَانِبِ الصُّفَّةِ وَجَلَسَ
فِي جَانِبِهَا، أطرقت رأسها حياء منه، أطرق رأسه حياء منها، أصبحا
وحدهما، بكت فاطمة!

أستغرب الشاب بكاء حبيته، ضمها لصدره، سمعت ضربات
قلبه تذكر الله وصداهها يدخل أذنها الصاغية أجبك، همس بصوت
منخفض: ما الذي يبكيك يا ابنة العم؟! هلاً رضىتني بعلاً؟ هدأت
وكففت دموعها، ابتسمت، أجابت استغرابه بصوتها العذب: نِعْمَ
البعل أنت يا بن العم. قام العروسان ليلتهما يتجهجان لله عز وجل
ويتعبدان ويشكرانه على نعمه وعلى نعمة اجتماعهما.

كان شابا استثنائيا منذ ولادته؛ يُمثل في جملة كيانه جانبًا عظيمًا من العدالة الكونية الشاملة، نزل الوحي على النبي في الآية (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) دعا رسول الله بالطهور وعنده الشاب، أخذ بيده بعد ما تطهر فألصقها على صدره، نظر في وجهه المشرق ونطق بصوت يسمعه الحضور: إنما أنت منذر.

رفع يد الشاب من على صدره الشريف وردها على صدر الشاب، فقال: ولكل قوم هاد.. أنت منار الأنام وغاية الهدى وأمير القراء. أنا أقاتلهم على تنزيل القرآن وأنت تقاتلهم على تأويله!

كان عبيد الأصنام والأوثان يحاربون النبي ويعارضون ما ينزل عليه من الوحي. ولما اكتمل القرآن، لم تبق لمشكك في تنزيله حجة، بعد وفاة الرسول ظهر من يتأوله على غير تأويله!

أصبحت مهمة الشاب صيانة القرآن من تأويل المبطلين، وتحريف الجاهلين. استوعب دقائقه منذ نزول أول آية على النبي فانطلق ينادي: سلوني قبل أن تفقدوني وسلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من طرق الأرض.. ويكرر على مسمع الناس: لو كسرت لي الوسادة ثم جلست عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم والله ما من آية نزلت في بر أو بحر ولا سهل ولا جبل ولا ليل ولا نهار إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت وفي أي شيء نزلت.

أتى النبي منزل أم سلمة، لحقه الشاب، استدار بوجهه المقدس نحو أم سلمة وأشار بإبهامه للشاب: هذا والله قاتل القاسطين والناكثين والمارقين من بعدي.

خرج الرسول فجر اليوم الثاني ولحقه الشاب خارجا من بيت فاطمة يسير خلفه، سار للمسجد فانقطع شسع نعله، أخذه الشاب يخصفه، جلس النبي مع أصحابه، قال: إن منكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله.

قام أبو بكر نادى: أنا هو يا رسول الله.

ونهض عمر وهتف: أنا هو يا رسول الله.

أومى بيده للشاب: إنه خاصف النعل.

فتح للقرآن افاقا في تفسيره وتعليمه، وكان يرى أن ظاهره انيق، وباطنه عميق، لا تنفى عجائبه ولا تنقض غرائبه، ولا تنكشف الظلمات الا به، ونهى عن تفسير القرآن بالهوى والرأي حتى يفقه عن العلماء، فهو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام البشر، فكلام الله تبارك وتعالى صفته وكلام البشر أفعالهم فلا تشبه كلام الله بكلام البشر.

دخل مسجد الكوفة ورأى شابا يبكي والقوم يسكتونه، سأله ما أبكاك؟

- يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرَ خَرَجُوا بِأَبِي مَعَهُمْ فِي السَّفَرِ فَرَجَعُوا وَلَمْ يَرْجِعْ أَبِي، سَأَلْتُهُمْ عَنْهُ قَالُوا مَاتَ، سَأَلْتُهُمْ عَنْ مَالِهِ، قَالُوا مَا تَرَكَ مَالًا، قَدَّمْتُهُمْ إِلَى الْقَاضِي فَاسْتَحْلَفَهُمْ، وَقَدْ عَلِمْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَبِي خَرَجَ وَمَعَهُ مَالٌ كَثِيرٌ.

أمر الشاب والجميع بالرجوع إلى القاضي، ذهب معهم. سأل القاضي: كيف قضيت بين هؤلاء؟

نظر القاضي إلى الشاب قائلا: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ادْعَى هَذَا الْفَتَى عَلَى هَؤُلَاءِ النَّفَرَ أَنْهُمْ خَرَجُوا فِي سَفَرٍ وَأَبُوهُ مَعَهُمْ فَرَجَعُوا وَلَمْ يَرْجِعْ أَبِي، سَأَلْتُهُمْ عَنْهُ فَقَالُوا مَاتَ، سَأَلْتُهُمْ عَنْ مَالِهِ، قَالُوا مَا خَلَّفَ

مَالًا، فَقُلْتُ لِلْفَتَى هَلْ لَكَ بَيْنَهُ عَلَى مَا تَدْعِي، قَالَ لَا، فَاسْتَحَلَفْتَهُمْ فَحَلَفُوا.

- هيهات يا أيها القاضي ما هكذا تحكم في مثل هذا. رد القاضي وجبينه ينضح عرقا من الخجل: كيف؟

- رد: والله لأحكمن فيهم بحكم ما حكم به خلق قبلي إلا داود النبي، وطلب أن يستدعي شرطة الخميس. دعا المشتبه بهم ووكل بكل رجل منهم رجلا من الشرطة، تأمل في وجوههم قائلا: أَتَقُولُونَ إِنِّي لَا أَعْلَمُ مَا صَنَعْتُمْ بِأَبِي هَذَا الْفَتَى، إِنِّي إِذَا لَجَاهِلٌ، فَرَقُّوهُمْ وَغَطُّوا رءُوسَهُمْ!

ففرق بينهم وأقيم كل رجل منهم إلى أسطوانة من أساطين المسجد ورءوسهم مغطاة بثيابهم، ثم قال لكاتبه: هَاتِ صَحِيفَةً وَدَوَاةً، وَجَلِسْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ، وَجَلَسَ النَّاسُ إِلَيْهِ. قَالَ لَهُمْ: إِذَا أَنَا كَبُرْتُ فَكَبِّرُوا، دَعَا بَوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، أَمَرَ الْكَاتِبَ اكْتُبْ إِقْرَارَهُ وَمَا يَقُولُ، سَأَلَهُ: فِي أَيِّ يَوْمٍ خَرَجْتُمْ مِنْ مَنَازِلِكُمْ وَأَبُو هَذَا الْفَتَى مَعَكُمْ؟

- يوم كذا وكذا.

في أي شهر؟

- شهر كذا وكذا.

في أي سنة؟

- سنة كذا وكذا. إلى أين بلغتم في سفركم حتى مات أبو هذا الفتى؟

- موضع كذا وكذا.

في منزلٍ مَنْ مات؟
- مَنْزِلِ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ.

ما كان مرضه؟

- كَذَا وَكَذَا.

كم يوماً مرض؟

- كَذَا وَ كَذَا.

في أي يومٍ مات ومن غسله ومن كفنه ومِمَّا كَفَّتُمُوهُ ومن صَلَّى
عَلَيْهِ ومن نزل قبره؟

سأله عن جميع ما يريد ثم كبر أمير المؤمنين وكبر الناس جميعاً،
ارتاب الباقون ولم يشكوا أنّ صاحبهم قد أقر عليهم وعلى نفسه،
أمرأن يغطى رأسه وينطلق به إلى السجن. دعا بأخر أجلسه بين
يديه وكشف عن وجهه، قال: زعمتم أنّي لا أعلم ما صنعتم؟

- يا أمير المؤمنين ما أنا إلا واحد من القوم و لقد كنت كارهاً
لقتله، فأقر. دعا بواحدٍ بعد واحد كلهم يقر بالقتل، وأخذ المال.
فألزمهم المال و الدم.

نزل الوحي على النبي: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)، يا محمد إن
الله جل اسمه يقرئك السلام ويقول لك: إني لم أقبض نبيا من أنبيائي
ولا رسولا من رسلي إلا بعد إكمال ديني وتأكيد حجتِي، وقد بقي
عليك من ذاك فريضتان مما تحتاج أن تبلغهما قومك: فريضة الحج،
وفريضة الولاية والخلافة من بعدك، فإني لم أخل أرضي من حجة
ولن أخليها أبدا، فإن الله جل ثناؤه يأمرك أن تبلغ قومك الحج
وتحج ويحج معك من استطاع إليه سبيلا من أهل الحضر والأطراف

والأعراب وتعلمهم من معالم حجهم مثل ما علمتهم من صلاتهم
وزكاتهم وصيامهم وتوقفهم من ذلك علي مثال الذي أوقفهم عليه
من جميع ما بلغتهم من الشرائع.

أستشعر قرب الأجل المحتوم، دخل على فاطمة في بيتها أخبرها: إِنَّ
جِبْرَائِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي بِهِ الْعَامَ
مَرَّتَيْنِ، وَمَا أَرَى ذَلِكَ إِلَّا اقْتِرَابَ أَجَلِي.

عزم على أداء فريضة الحج، نادي المنادي في الناس: ألا إن رسول الله يريد الحج وأن يعلمكم من ذلك مثل الذي علمكم من شرائع دينكم ويوقفكم من ذاك على ما أوقفكم عليه من غيره.

تقاطرت ألوف المسلمين على المدينة وتجهّزوا للخروج معه وبلغ عددهم ما يقارب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى من مختلف الحواضر والبوداي والقبائل، وانطلق الناس إليه يسألونه عن سبب ذلك، أجابهم إنَّ نَفْسِي قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ. انحنى الرؤوس وبات جواب الرسول كالصاعقة نزلت عليهم، لا يعلمون ماذا سيجري عليهم إن خلت هذه الدنيا من النبي!

حج حَجَّةِ الْوَدَاعِ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ قَائِلًا لِعَامَةِ النَّاسِ: **إِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا.** طاف على الناس يُعَرِّفُهُمْ بِمَا يَضْمَنُ لَهُمْ نَجَاحَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ، كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي.**

قدم لجميع المسلمين الركيعة الاولى لِسَلَامَةِ الْأُمَّةِ وَصِيَانَتِهَا عَنْ أَيِّ زَيْغٍ عَقَائِدِي، تَمَسُّكُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّمَسُّكُ بِالْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ، فَهُمَا أُسَاسُ سَعَادَتِهَا وَنَجَاحِهَا. واتصلت التلبية ما بين مكة والمدينة فلما وقف بالموقف أتاه جبرائيل عن الله عز وجل أخبره: يا محمد إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك: إنه قد دنا أجلك ومدتك وأنا مستقدمك على ما لا بد منه ولا عنه محيص، فاعهد عهدك وقدم وصيتك واعمد إلى ما عندك من العلم وميراث علوم الأنبياء من

قبلك والسلاح والتابوت وجميع ما عندك من آيات الأنبياء، فسلمه إلى وصيك وخليفتك من بعدك حجتى البالغة على خلقي علي بن أبي طالب عليه السلام، فأقمه للناس علما وجدد عهده وميثاقه وبيعته، وذكرهم ما أخذت عليهم من بيعتي وميثاقي الذي واثقتهم وعهدي الذي عهدت إليهم من ولاية وليي ومولاهم ومولى كل مؤمن ومؤمنة علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنني لم أقبض نبيا من الأنبياء إلا من بعد إكمال ديني وحجتي وإتمام نعمتي بولاية أوليائي ومعاداة أعدائي، وذلك كمال توحيدى ودينى وإتمام نعمتى على خلقي باتباع وليي وطاعته، وذلك أني لا أترك أرضي بغير ولي ولا قيم ليكون حجة لي على خلقي،

ف(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) بولاية وليي ومولى كل مؤمن ومؤمنة علي عبدي ووصي نبي والخليفة من بعده وحجتي البالغة على خلقي، مقرون طاعته بطاعة محمد نبيي ومقرون طاعته مع طاعة محمد بطاعتي، من أطاعه فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني، جعلته علما بيني وبين خلقي، من عرفه كان مؤمنا ومن أنكره كان كافرا ومن أشرك ببيعته كان مشركا ومن لقيني بولايته دخل الجنة، ومن لقيني بعداوته دخل النار

ومما جاء في خطبة الوداع: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحُرْمَةِ بِلَدِّكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

- أجابه الناس: نعم.

نظر الرسول للسماء ونطق بصوت يسمعه الحضور: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثم أردف: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا. النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ سَوَاءٌ،
النَّاسُ طَفِ الصَّاعِ لَأَدَمَ وَحَوَاءَ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ
عَلَى عَرَبِيٍّ إِلَّا تَقْوَى اللَّهِ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

- نعم.

رفع النبي رأسه المقدس إلى السماء: اللَّهُمَّ اشْهَدْ. لَا تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ،
وَأْتُونِي بِأَعْمَالِكُمْ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

- نعم.

كرر: اللَّهُمَّ اشْهَدْ. كُلُّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمِي،
وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمَ آدَمَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. أَلَا هَلْ
بَلَّغْتُ؟

- نعم. اللَّهُمَّ اشْهَدْ. وَكُلُّ رِبَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمِي،
وَأَوَّلُ رِبَا أَضَعُهُ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

- نعم.

اللَّهُمَّ اشْهَدْ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِذَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ، يَضِلُّ بِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا، يُجْلُونَهُ عَامًا، وَيَحْرَمُونَهُ عَامًا، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ. أُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ، لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ
شَيْئًا، وَإِنَّمَا أَحَدَتْهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحَلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكِتَابِ اللَّهِ،
وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقٌّ، كَسَوْتَهُنَّ، وَرَزَقَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،
وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوَطِئَنَّ فِرَاشَكُمْ أَحَدًا، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بَيْوتِكُمْ إِلَّا بِعِلْمِكُمْ
وَإِذْنِكُمْ، فَإِنَّ فَعَلْنَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ
ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

- نعم.

اللَّهُمَّ اشْهَدْ. فَأَوْصِيكُمْ بِمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانِكُمْ، فَأَطَعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ،
وَأَلْبَسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَإِنْ أَدْنَبُوا فَكَالُوا عُقُوبَاتِهِمْ إِلَى شِرَارِكُمْ. أَلَا
هَلْ بَلَّغْتُ؟

- نعم.

اللَّهُمَّ اشْهَدْ إِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَغْشَاهُ، وَلَا يَخُونُهُ، وَلَا يَخْتَابُهُ،
وَلَا يَحُلُّ لَهُ دَمَهُ، وَلَا شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسِهِ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

- نعم.

اللَّهُمَّ اشْهَدْ. خَتَمَ الْخِطَابَ بِقَوْلِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ احْفَظُوا قَوْلِي
تَنْتَفِعُوا بِهِ بَعْدِي، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا مُضَلَّلِينَ إِلَيَّ خَلَفْتُ فِيكُمْ
مَا أَنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي، فَإِنَّهُ قَدْ
نَبَأَنِي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يردَا عَلَيَّ الْحَوْضَ. أَلَا فَمَنْ
اعْتَصَمَ بِهِمَا فَقَدْ نَجَا، وَمَنْ خَالَفَهُمَا فَقَدْ هَلَكَ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟

- نعم.

اللَّهُمَّ اشْهَدْ. التفت إليهم، طالبهم بالالتزام بما أعلنه وأذاعه فيهم
قائلاً: (إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ).

رحل فلما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاثة أميال أتاه جبرائيل
على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهاز والعصمة من
الناس.

قام رسول الله فوق تلك الأحجار، حمد الله تعالى وأثنى عليه
قائلاً: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمُتَّقِنُ الصَّنْعَةَ، الْحَسَنُ الصَّنِيعَةَ،
الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، وَالْأَكْرَمُ الَّذِي تَرْجِعُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ. وَأَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ
الَّذِي تَوَاصَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ، وَدَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِعِزَّتِهِ، وَاسْتَسَلَّمَ كُلُّ شَيْءٍ
لِقُدْرَتِهِ، وَخَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِهَيْبَتِهِ. مَلِكُ الْأَمْلاكِ وَمَمْلُوكُ الْأَفْلاكِ وَ(يَكُونُ

اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ مَا أَوْحَى بِهِ إِلَيَّ، حَذْرًا مِنْ أَنْ لَا أَفْعَلَ فَتَجَلَّ بِِي مِنْهُ قَارِعَةً لَا يَدْفَعُهَا عَنِّي أَحَدٌ وَإِنْ عَظَمْتَ حِيلَتَهُ وَصَفَتْ خُلَّتُهُ ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

لَأَنَّهُ قَدْ أَعْلَمَنِي أَنِّي إِنْ لَمْ أَبْلُغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيَّ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَقَدْ صَمِنَ لِي تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعِصْمَةَ مِنَ النَّاسِ وَهُوَ اللَّهُ الْكَافِي الْكَرِيمُ. فَأَوْحَى إِلَيَّ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ).

مَعَاشِرَ النَّاسِ، مَا قَصَّرْتُ فِي تَبْلِيغِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ، وَأَنَا أَبَيِّنُ لَكُمْ سَبَبَ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ جِبْرِيلَ هَبَطَ إِلَيَّ مَرَارًا ثَلَاثًا يَأْمُرُنِي عَنِ السَّلَامِ رَبِّي - وَهُوَ السَّلَامُ - أَنْ أَقُومَ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ فَأُعَلِّمَ كُلَّ أَيْبُضٍ وَأَسْوَدٍ: أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخِي وَوَصِيِّي، الَّذِي مَحَلُّهُ مِنِّي مَحَلُّ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟

- قالوا: اللَّهُ وَ رَسُولُهُ.

أردف: أَلَا فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، وَالنَّاهِي عَنِ مَعْصِيَتِهِ، وَقَاتِلِ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ وَأَنْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاحْذُلْ مَنْ حَذَلَهُ وَالْعَنَ مَنْ أَنْكَرَهُ وَاعْضِبْ عَلَى مَنْ جَحَدَ حَقَّهُ.

مَعَاشِرَ النَّاسِ، هَذَا عَلِيٌّ، أَنْصُرْكُمْ لِي وَأَحْفَقْكُمْ بِي وَأَقْرِبْكُمْ إِلَيَّ وَأَعِزُّكُمْ عَلَيَّ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَا عَنْهُ رَاضِيَانِ.

هُوَ نَاصِرُ دِينِ اللَّهِ وَالْمُجَادِلُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ، وَهُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْهَادِي الْمَهْدِيُّ. نَبِيِّكُمْ خَيْرُ نَبِيٍّ وَوَصِيِّكُمْ خَيْرُ وَصِيٍّ وَبَنُوهُ خَيْرُ الْأَوْصِيَاءِ.

مَعَاشِرَ النَّاسِ، ذُرِّيَّةُ كُلِّ نَبِيٍّ مِنْ صُلْبِهِ، وَذُرِّيَّتِي مِنْ صُلْبِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ.

. مَعَاشِرَ النَّاسِ، قَدْ اسْتَشْهَدْتُ اللَّهَ وَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَتِي (وَمَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

مَعَاشِرَ النَّاسِ، حِجُّوا الْبَيْتَ، فَمَا وَرَدَهُ أَهْلُ بَيْتِ إِلَّا اسْتَعْنَوْا
وَأُبْشِرُوا، وَلَا تَخَلَّفُوا عَنْهُ إِلَّا بْتِرُوا وَافْتَقَرُوا. مَعَاشِرَ النَّاسِ، مَا وَقَفَ
بِالْمَوْقِفِ مُؤْمِنٌ إِلَّا عَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَى وَقْتِهِ ذَلِكَ،
فَإِذَا انْقَضَتْ حَجَّتُهُ اسْتَأْنَفَ عَمَلَهُ.

مَعَاشِرَ النَّاسِ، الْحُجَّاجُ مُعَانُونَ وَنَفَقَاتُهُمْ مُخَلَّفَةٌ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. مَعَاشِرَ النَّاسِ، حِجُّوا الْبَيْتَ بِكَمَالِ الدِّينِ
وَالْتَفَقُّهُ، وَلَا تَنْصَرِفُوا عَنِ الْمَشَاهِدِ إِلَّا بِتَوْبَةٍ وَإِقْلَاعِ. مَعَاشِرَ النَّاسِ،
(أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ) كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ طَالَ
عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَفَصِّرْتُمْ أَوْ نَسِيتُمْ فَعَلِيٍّ وَلِيَّكُمْ وَمُبِينٌ لَكُمْ؛ الَّذِي نَصَبَهُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكُمْ بَعْدِي أَمِينَ خَلَقِهِ. إِنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَمَنْ
يَخْلُقُ مِنْ ذُرِّيَّتِي يُخْبِرُونَكُمْ بِمَا تَسْأَلُونَ عَنْهُ وَيُبَيِّنُونَ لَكُمْ مَا لَا
تَعْلَمُونَ. أَلَا إِنَّ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أُحْصِيَهُمَا وَأَعْرِفَهُمَا؛ فَأَمُرُ
بِالْحَلَالِ وَأَنْهِيَ عَنِ الْحَرَامِ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ،

مَعَاشِرَ النَّاسِ، وَكُلُّ حَلَالٍ دَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ وَكُلُّ حَرَامٍ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ
فَإِنِّي لَمْ أَرْجِعْ عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ أَبَدِّلْ. أَلَا فَادْكُرُوا ذَلِكَ وَاحْفَظُوهُ وَتَوَاصَوْا
بِهِ، وَلَا تُبَدِّلُوهُ وَلَا تُعَيِّرُوهُ. أَلَا وَإِنِّي أُجَدِّدُ الْقَوْلَ: أَلَا (فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ) وَاءُ مَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ. أَلَا وَإِنْ رَأَسَ الْأَمْرُ
بِالْمَعْرُوفِ أَنْ تَنْتَهَوْا إِلَى قَوْلِي وَتَبَلَّغُوهُ مَنْ لَمْ يَحْضُرْ وَتَأْمُرُوهُ بِقَبُولِهِ
عَنِّي وَتَنْهَوْهُ عَنِ مُخَالَفَتِهِ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنِّي. وَلَا أَمْرَ
مَعْرُوفٍ وَلَا نَهْيٍ عَنِ مُنْكَرٍ إِلَّا مَعَ إِمَامٍ مَعْصُومٍ.

مَعَاشِرَ النَّاسِ، الْقُرْآنُ يُعَرِّفُكُمْ أَنَّ الْأُمَّةَ مِنْ بَعْدِهِ وُودَهُ، وَعَرَفْتُمْ أَنَّهُمْ مِنِّي وَمِنْهُ، وَقُلْتُ: «لَنْ تَضِلُّوا مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا». مَعَاشِرَ النَّاسِ، التَّقْوَى، التَّقْوَى، وَاحْذَرُوا السَّاعَةَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ). اذْكُرُوا الْمَمَاتَ وَالْمَعَادَ وَالْحِسَابَ وَالْمَوَازِينَ وَالْمُحَاسَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالشَّوَابَ وَالْعِقَابَ.

مَعَاشِرَ النَّاسِ، قُولُوا مَا يَرْضَى اللَّهُ بِهِ عَنْكُمْ مِنَ الْقَوْلِ، فَإِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِمَّا أَدَّيْتُ وَأَمَرْتُ وَاغْضَبْ عَلَى الْجَاهِدِينَ الْكَافِرِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

12

بعد ثلاثة شهور توفي النبي في اليوم الثامن والعشرين من شهر
صفر في السنة العاشرة من الهجرة

كان رسول الله صائما، درجة حرارته ارتفعت ارتفاعا خطيرا يعاني
صداعا عنيفا في رأسه المقدس الشريف، قامت نساؤه بسقيه دواء،
أفاق من الإغماء وقال لا يبقى أحد في البيت إلا لد، إلا العباس فإنه
لم يشهدكم.

أمر من في الدار بأن لا يلدوه ولا يجرعوه أي دواء مهما كان.

همس في أذن العباس: يا عم محمد تأخذ تراث محمد وتقضي
دينه وتنجز عاداته؟

- يا رسول الله: أنا شيخ كبير كثير العيال، قليل المال، من يطيقك
وأنت تباري الريح؟

أطرق النبي هنيئة قال: يا عباس أتأخذ تراث رسول الله وتنجز
عاداته وتؤدي دينه

- بأبي أنت وأمي أنا شيخ كبير كثير العيال قليل المال، من يطيقك
وأنت تباري الريح؟

أجابه النبي: أما إني سأعطيها من يأخذ بحقها. نادى الرسول
فاطمة كلمها: بأبي وأمي أنت! أرسلني إلى بعلك، ادعيه لي.

أخبره: يدعوك جدي. انطلق إليه الحسين مسرعا.

جاء علي همسة فاطمة في أذن ابنيها: كأنك بعثته في حاجة!

نظر للشاب قائلاً: يا أبا محمد أتجز عداة محمد وتقضي دينه
وتأخذ تراثه؟

- نعم بأبي أنت وأمي.

تساقطت دموع فاطمة، صرخت: واكرباه لكربك يا أبتاه قبلها
الرسول قائلاً: لا كرب على أبيك بعد اليوم يا فاطمة، إن النبي لا يشق
عليه الجيب، ولا يخمش عليه الوجه، ولا يدعى عليه بالويل ولكن
قولي كما قال أبوك على إبراهيم: تدمع العينان وقد يوجع القلب ولا
نقول ما يسخط الرب وإنما بك يا إبراهيم لمحزونون.

. نزع الرسول خاتمه من إصبعه ناوله للوصي قال: تختم بهذا في
حياتي فوضعه علي في إصبعه اليمنى، صاح رسول الله: يا بلال علي
بالمغفر والدرع والراية وسيفي: ذي الفقار وعمامتي: السحاب والبرد
والأبرقة والقضيب. نظر لعلي وأسمعه: يا علي أن جبرائيل أتاني بها.
فقال: يا محمد إجعلها في حلقة الدرع واستوفر بها مكان المنطقة،
دعا بزوجي نعال عربيين إحداهما مخصوفة والأخرى غير مخصوفه،
والقميص الذي أسري به فيه، والقميص الذي خرج فيه يوم أحد
والقلانس الثلاث قلنسوة السفر وقلنسوة العيدين وقلنسوة كان يلبسها.

قال النبي لبلال: يا بلال علي بالبغلتين: الصهباء والدلدل
والناقتين: العضباء والصهباء والفرسين الجناح الذي كان يوقف بباب
مسجد رسول الله لحوائج الناس، وحيزوم. والحمار يعفور. رن مسمع
الشاب: يا علي إقبضها في حياتي حتى لا ينازعك فيها أحد بعدي.
تقرب الشاب من النبي ستره بثوب وأكب عليه رسول الله وجعل
يسره ويناجيه، أوصى عليًا بجميع وصاياه، أغمى عليه، أكبت فاطمة
تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول:

وأبيض يستقى الغمام بوجهه... ثمال اليتامى عصمة الأرامل

فتح رسول الله عينه، خاطبها بصوت ضعيف: يا بنية هذا قول عمك أبي طالب لا تقوليهِ ولكن قولي (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم).

بكت طويلاً وأوماً إليها بالدنو منه فدنت منه فأسرَّ إليها شيئاً تهلل وجهها له، فاضت نفسه الزكية فيها، طلب علي من الفضل بن العباس أن يناوله الماء لغسله وتولى غسله وتحنيطه وتكفينه والفضل يعطيه الماء ويعينه عليه، تم غسله وتجهيزه ثم تقدم وصلى عليه، كان المسلمون في المسجد يخوضون فيمن يؤمهم بالصلاة عليه، وأين يدفن، خرج علي إليهم: إن رسول الله إمامنا حياً وميتاً، أدخلوا عليه فوجاً بعد فوج منكم تصلون عليه بغير إمام، وتنصرفون، إن الله تعالى لم يقبض نبياً في مكان إلا وقد ارتضاه لرمسه فيه، وإني لدافنه في حجرته التي قبض فيها. سلم القوم لذلك ورضوا به.

بعد صلاة المسلمين دخل علي والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد ليتولوا دفن رسول الله، نادى الأنصار من وراء البيت: يا علي إن نذكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله أن يذهب، أدخل منا رجلاً يكون لنا به حظ من مواراة رسول الله. رد عليهم: ليدخل أنس بن خولي من بني عوف من الخزرج، ووضع رسول الله على يديه ودلّاه في حفرتة، ونزل علي إلى القبر، كشف عن وجه رسول الله ووضع خده على الأرض موجهاً إلى القبلة على يمينه ووضع عليه اللبن وأهال عليه التراب. وهو يرثيه:

الموت لا والداً يبقي ولا ولداً... هذا السبيل إلى أن لا ترى أحد
هذا النبي ولم يخلد لأمتة... لو خلّد الله خلقاً قبله خلداً
للموت فينا سهام غير خاطئة... من فاته اليوم سهم لم يفته غداً

انتابها حزنٌ شديد برحيل رسول الله، أحست فقدان سندها الحقيقي، انتابتها الأحزان ما رُئيت ضاحكةً بعده. تتذكر كلام أبيها إليها: يا فاطمة إنَّ الله عزَّ وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك. والرَّحمة الطَّهارة والتَّذكير. مازالت أحاديث رسول الله وصوته العذب يخترق أذنيها، يتسرخ في ذهنها، يذوب في قلبها، ينطق بها لسانها الطاهر: أتعجبون أنَّ القرآن أربعة أرباع؛ ربع فينا أهل البيت، وربع قصص أمثال، وربع فرائض، وربع أحكام، والله أنزل في عليٍّ كرائم القرآن.

أرسل الله إليها ملكا يسألني غمها ويحدثها. ولما لا!

وفق كلام الرسول المعظم إنها سيِّدة نساء العالمين؟

كانت عدلاً للقرآن الكريم، القائلة: حبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: تلاوة كتاب الله، والنظر إلى وجه رسول الله، والإنفاق في سبيل الله. رثت أباهما قد كان جبريل بالآيات يؤنسنا فغبت عنَّا فكل الخير محتجب فكننت بدرا ونورا يستضاء به عليك تنزل من ذي العزة الكتب لعلح صوتها بالحق يوم طالبت بحقها ارض فذك: ومعنا كتاب الله النَّاطق، والقرآن الصَّادق، والنور السَّاطع والضيء اللامع، بيِّنة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائد إلى الرِّضوان اتِّباعه، مؤدِّ إلى النَّجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائم المفسِّرة، ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفوائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة.

كان بعلمها يخفف الحزن عنها يذكرها بكلام الرسول: فيقول الله (يا فاطمة) انطلقى فمن اعتصم بك فهو معك في الجنة، فعند ذلك يودّ الخلائق أنّهم كانوا فاطميين وقد أوصت بعلمها: إذا أنا متُّ، فتولّ غسلِي، وجهزني، وصلّ عليّ، وأنزلي قبري... فأكثر من تلاوة القرآن والدعاء، فإنّها ساعة يحتاج الميت فيها إلى أنس الأحياء،

سأل الناس بعلمها عن الإكثار من تلاوة القرآن فقال:

واعلموا أنّه شافع مشفّع، وقائل مصدّق، وإنّه من شفّع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه، ومن مَحَلّ به القرآن يوم القيامة صُدّق عليه، فإنّه ينادي منادٍ يوم القيامة: إلا إنّ كلّ حارثٍ مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثته القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه.

لم يقول الرسول: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: يا معشر الخلائق غَضُّوا أبصاركم ونكّسوا رؤوسكم، حتى تمرّ فاطمة بنت محمد، فتكون أوّل من يكسى، وتستقبلها من الفردوس اثنتا عشرة ألف حوراء... ثم يبعث الله ملكاً لها لم يبعث لأحد قبلها ولا يبعث لأحد بعدها، فيقول: إنّ ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: سليني، فتقول: هو السلام، ومنه السلام، قد أتمّ عليّ نعمته، وهنّأني كرامته، وأباحني جنّته، وفضّلني على سائر خلقه، أسأله ولدي وذريّتي، ومن ودّهم فيّ وحفظهم بعدي، فيوحي الله إلى ذلك الملك من غير أن يزول من مكانه، أخبرها أنّي قد شفعتها في ولدها وذريّتها، ومن ودّهم فيها وحفظهم بعدها. فتقول: الحمد لله الذي أذهب عني الحزن، وأقرّ عيني، فيقرّ الله بذلك عين محمد.

الفصل الرابع

بعد وفاة النبي، هبت ريح عاصفة في سقيفة بني ساعدة والرسول لم يقبر بعد. حل النزاع على الخلافة بين بعض الانصار وأصحاب النبي، ضعفت فيه جبهة الأنصار، تمت البيعة لآبي بكر.

جاء إليه أبو سفيان وصار يهتف: يا علي أبسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجلاً.

زجره علي ورد عليه: والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك.

أعلن: وَاللَّهِ لَأَسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ

طبق وصية رسول الله له: إنه سيكون بعدي اختلاف وأمر فإن استطعت أن تكون السلم فافعل.

تجاه واقع الأمة كان يقول للناس: اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّىٰ عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبُهَائِمِ.

لم تكن عنده الخلافة قضية أساسية تجمد حياته هي ليست غاية مطمحه، بعد أن أستلم زمام أموره كان هو وعبد الله بن عباس في ذي قار رآه يخصف نعله، رفع رأسه وسأل عبد الله: مَا قِيَمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟

- لا قِيَمَةَ لَهَا.

والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أَقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا. لم يتخل عن وظيفته الرسالية يوماً واحداً، كان يتحمل المسؤولية دوماً تجاه الرسالة والأمة. حفظ وحدة الأمة في ذلك الظرف الخطير، ورعى

مصلحة الكيان الإسلامي الذي كان بحاجة إلى آرائه الصائبة، ومعرفته العميقة بمفاهيم الدين وتطبيقات أحكامه. تحمل مسؤوليته، كان مع الخلفاء ومع الأمة، يحضر المسجد، يشارك في صلاة الجماعة وهو أمام المسلمين، يُسْتَشَار، ويشير فيعطي رأيه، ينقذ الأمة، يساعد الخلفاء في مواقف كثيرة.

كان يحض الخلفاء النصيحة ويشير عليهم بما ينفع الأمة وكيان المسلمين، الخليفة عمر كان يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن علي، عمر كان يدعو: اللهم لا تنزل بي شدة إلا وأبو الحسن إلى جنبي. أبدى وصي النبي عدم رضاه عن بعض السياسات عهد عثمان، خاصة دور البطانة التي كانت حوله، ما انفك يقدم النصيحة والرأي لعثمان، كان واسطة وسفيراً بين المعارضين والخليفة أكثر من مرة، لكن الأمر خرج من يده، حوَصر عثمان ومُنِع عنه الماء استنجد بعلي، بعث علي ولديه الحسنين بِقِرْب الماء حتى أدخلوه إلى بيت عثمان. أمر ولديه الحسنين أن يبقيا على باب عثمان حراسةً له، المعارضين تسلقوا من بيوت الجيران على دار الخليفة. بعث عثمان بن عفان أبا سفيان بن الحرث على العروض.

كان جل اهتمام الإمام علي بعد وفاة النبي هو القران الكريم، وتأويله عنده مبني على التنزيل من عند الله إلى رسوله محمّد المصطفى ابن عبد الله، تسطع الأنوار الإلهية والأضواء النبوية من كلامه المستنبط من القرآن المجيد وتعاليم الرسول على الأسس والأصول الدينية والتنزيلية كما في تأويله الالهامي عندما سأله المسلمون عن تأويل الآية (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، أجابهم: أوّل الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه... فَمَنْ وصف الله

سبحانه فقد قرنه ومَن قرنه فقد ثنَّاه ومَن ثنَّاه فقد جزَّاه ومَن جزَّاه فقد جهله ومَن جهله فقد أشار إليه ومَن أشار إليه فقد حدَّه ومَن حدَّه فقد عدَّه.

منذ بدأ الرسالة ونزول الآيات كان الإمام علي يجمع القرآن وهو نفسه الذي بين أيدينا اليوم، عمل مصحف فيه، كما كتبه بعض المسلمين في قراطيس وألواح من الرقاع والعسب واللخاف والأكتاف حتى جمع في عهد الرسول ويشرف بنفسه على ما يكتب، الصحابة كانوا يهتمون القرآن من أوله إلى آخره، قال النبي: إن لصاحب القرآن عند الله لكل ختم دعوة مستجابة.

كان رسول الله ترك مصحفاً في بيته خلف فراشه مكتوباً في العسب والحريير والاكثاف، وأمر علياً بأخذه وجمعه. أصر الإمام علي بعد وفاة النبي على تخصيص وقتا ليس بالقليل على جمع القرآن، يقول: لا أرتدي حتى أجمعه. أحتفظ علي بهذا المصحف لنفسه وأهل بيته ولم يظهره لأحد، حفاظاً على وحدة الأمة، قعد فترة في بيته مشتغلاً بجمع القرآن وترتيبه على ما نزل. يشتمل أيضاً على شروح وتفسير لمواضع من الآيات مع بيان أسباب ومواقع النزول. واشتمل على جملة من علوم القرآن الكريم، كالمحكم والمتشابه والمنسوخ والناسخ وتفسير الآيات وتأويلها.

ألت الخلافة إلى عثمان بعد وفاة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، اختلفت المصاحف، أثيرت الضجة بين المسلمين. سأل طلحة الإمام علياً لو يخرج للناس مصحفه الذي جمعه بعد وفاة رسول الله: وما يمنعك - يرحمك الله - أن تخرج كتاب الله إلى الناس؟

- يا طلحة أخبرني عمّا كتبه القوم؟ أقر أن كله أم فيه ما ليس بقرآن؟

رد طلحة: بل قرآن كله.

- رد عليه علي: إن أخذتم بما فيه نجوتم من النار ودخلتم الجنة.

العالم المفكر الأديب الإداري الحاكم القائد الذي يترك الناس والحكام وذوي المطامع والجيوش يتآمرون به، ليقبل عليك فيهز فيك مشاعر الإنسان الذي له عواطف وأفكار، فيهمس في قلبك هذه النجوى الرائعة بما فيها من حرارة العاطفة الكريمة قائلاً: «فقد الأعبة غربة»، أو «لا تشمت بالمصائب»، أو «ليكن دنوك من الناس ليناً ورحمة»، أو «واعفُ عمَّن ظلمك، وأعطِ من حرمك، وصلِّ من قطعك، ولا تبغض من أبغضك».

بعد خمسة وسبعين يوماً شرب كأس الحزن الآخر بألم فقدان حبيبته الممزوج بحلاوة نورها الطاهر، حانت منية من قال عنها أبيها: ما رَضِيْتُ حَتَّى رَضِيْتُ فَاطِمَةَ، من أحبِّ فاطمة ابنتي فهو في الجنة معي، ومَن أبغضها فهو في النار،

من رضيت عنه ابنتي فاطمة رضيت عنه، ومَن رضيتُ عنه رضي الله عنه. ومَن غضبت عليه ابنتي فاطمة غضبت عليه، ومَن غضبت عليه غضب الله عليه.

كابدت المرأة الطاهرة معاناة حقيقية بعد وفاة أبيها. تغلغل الحزن فيها إلى أن تجدُر.

يوماً فيوما راحت تذبذب الزهرة اليانعة. أوصت بعلها أن يكتفم أمرها، ويخفي خبرها!

همست في أذن علي: أوصيك إذا قضيت نحبي؛ فغسلني، ولا تكشف عني؛ فيأني طاهرة مطهَّرة، وحنطني بفاضل حنوط أبي رسول الله (صلَّى الله عليه وآله)، وصلِّ عليَّ، وليصلِّ معك الأذني فالأذني من

أهل بيتي، وادفني ليلا لا نهارا إذا هدأت العيون ونامت الأبصار، و سرّاً لا جهاراً، وعفٍ موضع قبري، ولا تشهد جنازتي أحدا ممّن ظلمني. طلبت ثيابا جديدة، دعت سلمى امرأة أبي رافع طلبت منها: هيئي لي ماءً. جلبت سلمى الماء، أمرتها بسكبه، اغتسلت، لبست ملابسها الجديدة، نطقت: قدموا سريري وسط البيت، استلقت عليه مستقبلة القبلة، قالت: إني مقبوضة الآن فلا يكشفني أحد.

تردد: يا ربّ إني قد سئمت الحياة وتبرمت بأهل الدّنيا فالحقني بأبي.

توضّأت، تسجّت بثوبها،

حانت ساعة الاحتضار، انكشف الغطاء نظرت فاطمة نظرة حادّة، نطلق لسانها: السلام على جبرائيل، السلام على رسول الله، اللهمّ مع رسولك، اللهمّ في رضوانك وجوارك ودارك دار السلام.

هذه مواكب أهل السماوات وهذا جبرائيل وهذا رسول الله يقول: يا بنية أقدمي فما أمامك خيرٌ لك، فتحت عينيها، حركت شفيتها: وعليك السلام يا قابض الأرواح عجل بي ولا تعدّ بني، إليك ربّي لا إلى النار، أغمضت عينيها ومدّت يديها ورجليها دخلت قضت نحبا صابرة، مظلومة محتسبة.

. تجمع أهل المدينة يصرخون على ابنة رسول الله، انتظروا الجنّاة.

جنّ الليل، نامت العيون، هدأت الأبصار، جاء في جوف الليل نفرٌ قليل من الهاشميين ومن المحبّين الذين وقفوا مع علي، فشيعوها، دفنها علي في مثواها الأخير سرا وعفا على مَوْضِعِ قَبْرِهَا، ثُمَّ قَامَ فَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ، نطق لسانه: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ

اللَّهِ عَنِّي، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ عَنِ ابْنَتِكَ وَزَائِرَتِكَ وَالْبَائِتَةِ فِي الثَّرَى بِبُقْعَتِكَ،
وَالْمُخْتَارِ لِلَّهِ لَهَا سُرْعَةَ اللِّحَاقِ بِكَ، قَلَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ
صَبْرِي، وَعَقَا عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنَّ لِي فِي النَّاسِ
بِسُنَّتِكَ فِي فُرْقَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزُّ، فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، إِنَّا لِلَّهِ
وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا حُزْنِي فَسَرَمْتُ، وَأَمَا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، وَهَمٌّ لَا يَبْرَحُ
مِنْ قَلْبِي أَوْ اخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مُقِيمٌ، كَمَدُّ مُقْيِحٍ،
وَهَمٌّ مُهَيِّجٌ، سَرَعَانَ مَا فَرَّقَ بَيْنَنَا،

ما لي وقفتُ على قبورِ مُسَلِّمًا... قبرِ الحبيبِ فلمْ يردُّ جوابي
أحبيبُ! ما لك لا تردُّ جوابنا... أنسيتَ بعدي خُلَّةَ الأحاب

بعد مقتل عثمان توافد الناس إلى بيت علي يصرون على مبايعته، رد عليهم: دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإنّ الافاق قد أغامت والمحجة قد تنكّرت، واعلموا أنّي إن أحببكم ركبت بكم ما أعلم. وإلا فإني لكم وزير خير لكم مني أمير.

أعترض عن توليه الأمر بسبب ما سيواجه المسلمين من اضطرابات وفتن. عهد النبي كانوا مخالفه وأعداؤه يقاتلونه تحت شعار (أعل هبل) مقابلهم كان شعار النبي (الله أعلى وأجل).

عصر علي مخالفوه طبقة المتظاهرين بالإسلام وليسوا بمسلمين واقعا، شعاراتهم شعارات إسلامية بينما هدفهم القضاء على الإسلام. أبو سفيان كان قائد دعوة شعار (أعل هبل) مواجهته سهلة، لكن أبنه معاوية صاحب الروح السفينية، يحمل نفس أهداف أبيه، الاختلاف شعاره قرآنيًا (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا). معاوية لم يكن ولياً شرعياً للقتيل، ما هو سبب اصراره على المطالبة بدمه؟

أستلم أمير المؤمنين زمام أمور الخلافة، انتهج إقامة العدل في سياسته المستنبطة من القرآن الكريم، أبدى صلابة عجيبة وهو يقول: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله ما أطوربه ما سمر سمير، فأنا لست ممّن يترك نصره الضعفاء ويسكت عن الظلم لأجل تحقيق النصر ما دام في السماء أفلاك تجري!

رفض أعمال الدهاء والخدعة في العمل السياسي، اعتمد الصدق والصراحة، شاع بعض الناس: إنَّ عليّاً لا علم له بالسياسة، وأما معاوية فهو رجل السياسة

وصلته الإشاعة، قال:

والله ما معاوية بأدهى منِّي، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، لكن كلَّ غدره فجرة وكل فجرة كفره ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة بعد تدافع الناس عليه وإبدائهم النصر له، وما أخذ الله على العلماء من واجب لرفع الظلم عن الناس، بين موقفه من استلام الخلافة في هذا الوقت وصراعه لمعاوية ليزيحه عن ولاية الشام، و لم يصارع من أجل الخلافة أيام أبي بكر وعمر وعثمان. فقال: أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بوجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارَأُوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَعْبٍ مَظْلُومٍ لِأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسٍ أُولِهَا وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَرْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَقْطَةِ عَنَزٍ.

موضوع الخلافة بالنسبة لعلي كان موضوعاً جانبياً، وحديثه زفرة من زفرات الألم، يعتبره موضوع قد انتهى وتجاوزه إلى واقع جديد . سأله أحد أصحابه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟

- يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلْبُ الْوَضِينَ، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصَّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعَلَمْتَ فَأَعْلَمَ: أَمَا الْاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ، وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَباً وَالْأَشْدُونَ بِالرُّسُولِ نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَنْرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَحَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَالْحَكْمُ لِلَّهِ وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةَ.

كان علي بن أبي طالب على يقين بدفاعه من أجل الإسلام والقران وإقامة حكم الله في الأرض. ومعاوية قتاله من أجل الملك والسلطان، تستر بغطاء أخذ ثأر الخليفة!

كان معاوية - يطلب من الإمام - طول محاربتة - إقراره على ولاية الشام، لكن الإمام عليًا لم يرض ببقائه في الحكم لعلمه بسوء عمله خلال ولايته. وقال: «لا والله لا استعمل معاوية يومين أبدا، كرر معاوية الطلب ثلاثة مرات غايته الولاية على الشام وبقاؤه في الحكم. أما طلب الثأر والقصاص من قتله الخليفة، فكلها كانت واجهة لما كان يظمره ويخفيه، و لما تمَّ الأمر لصالحه، تناسى قتلة عثمان وتناسى الأخذ بثأره!

لم ييأس علي كان هادئ النفس مطمئن الفؤاد، فضحه ردُّ عليه في بعض كتبه إليه: قد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل الناس، ثم حاكم القوم إليّ، أحملك وإياهم على كتاب الله. كانت الأمنية الكبرى لمعاوية من تسعير نار الحرب، هو البقاء على السلطة، وتقلد الخلافة العامة بعد علي، ولم يكن له أيّ إربة في ما يدعيه، وينشره من أخذ الثأر وغيره.

قام معاوية بإرسال رسائل إلى شخصيات إسلامية كانوا محايدين، كتب إلى عبدالله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، يدعوهم إلى الثورة على علي.

رسالته إلى عبدالله بن عمر: لم يكن أحد من قريش أحبَّ إليّ أن يجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك، ثم ذكرتُ خذلك إياه، وطعنك على أنصاره، فتغيّرتُ لك، وقد هوّن ذلك عليّ خلافتك على عليّ، ومحا عنك بعض ما كان منك، فأعنتنا يرحمك الله - على حق هذا الخليفة المظلوم، فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكنني أريدها

لك، فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين.

- رد عليه عبد الله بعد أن وقف على نوايا معاوية برسالة: ما أنا كعلي في الإسلام، والهجرة، ومكانه من رسول الله.

كتب معاوية رسالة إلى سعد بن أبي وقاص: أما بعد فإن أحق الناس بنصرة عثمان، أهل الشام والذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكك في الأمر والشورى، وناظرك في الاسلام.

- أجاب سعد بن أبي وقاص رسالة معاوية بقوله: إن أهل الشورى ليس منهم أحقُّ بها من صاحبه غير أن علياً كان من السابقة، ولم يكن فينا ما فيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقنا كلنا بالخلافة.

كتب معاوية رسالة إلى محمد بن مسلمة يتهمه بخذلان عثمان ويقول: فهلا نهيت أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً أو ترى أن عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين.

- يجيب محمد بن مسلمة، رسالة معاوية ويفشي سره ويقول بعد كلام: ولئن نصرت (يا معاوية) عثمان ميتاً، لقد خذلتَه حياً أراد معاوية في تخطيطاته الخادعة يُعمي الأبصار والقلوب بأكاذيبه ورسائله كل ذلك لتعكير الصفو وإحداث الصدع.

بلغ علياً سعي معاوية لإثارة الفتنة بنشر الأكاذيب بين الشاميين وتعمية القلوب، فعمد إلى إخمادها قبل اشتعالها وكان الإمام على بيّنة من ربه.

حاول الإمام أن يقيم الحجّة على معاوية وأصحابه بأسلوب الحوار والموعظة الحسنة، حقنا لدماء المسلمين ووأد الفتنة، ولكن تلك المحاولات لم تجد آذانا صاغية عند معاوية، بعث أوّلاً بوفد ثلاثي إلى معاوية يذكّره الله، يدعو إلى التقوى والورع، كان جواب معاوية: ليس عندي إلاّ السيف.

دعا الإمام معاوية إلى المبارزة، حقنا لدماء الآخرين، ولكن معاوية رفض خشية على نفسه من بطشة الإمام. وضعت الحرب أوزارها، نزل معاوية بمن معه عند نهر الفرات في وادي صقّين الوسيع، وخرج الإمام علي من الكوفة ونزل في ذلك الوادي أيضا.

وصل قائد جيش معاوية واستولوا على شريعة الفرات. ومنع معاوية أهل العراق أن يشربوا من ماء الفرات ولو قطرة واحدة، فأضربهم وبدوا بهم العطش، أحد قادة معاوية نصحه أن يفسح المجال لأصحاب علي ليشربوا، لكن غرور معاوية منعه عن قبول النصيحة، وخاصة بعد أن استولى أصحابه استيلاء تاما على الفرات، قال معاوية: يا أهل الشام هذا أول الظفر، لا سقاني الله ولا أبا سفيان إن شربوا منه حتى يقتلوا بأجمعهم.

لم تنفع محاولات أمير المؤمنين لبلوغ الماء بالحسن، اضطرّه الأمر إلى استعمال القوّة لإنقاذ عشرات الألوف ممن كانوا معه من الموت عطشا، أمر الإمام جيشه أن ينزلوا ويضعوا أنقاهم وأحمالهم، وتسرع بعضهم إلى ناحية معاوية واقتتلوا قتالا قليلا. وتمت له السيطرة على الماء حاول بعض الأصحاب إقناع الإمام علي أن يقابلهم بالمثل، فأبي

ذلك أشدَّ الإباء، وأتاح معاوية وجيشه، الذين هددّوه قبل ساعات قليلة بالموت عطشا، أن يردوا الماء ويشربوا أسوة بأصحابه.

أرسل الرسائل لجيش الشام، لعلمهم يعودوا لرشدهم عن البغي. اشتعلت نار الحرب واصطدم العسكران، فزحف بعضهم على بعض، تراموا بالنبال والحجارة حتى فנית، تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت ومشى بعضهم إلى بعض السيوف وعمد الحديد، لم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض، وحملت الأفواج على الأفواج. تضعض جيش معاوية بعد قتلهم عمار بن ياسر الذي أخذ الحربة بيده ويده ترعد يقول: والذي نفسي بيده، لقد قتلت هذه الراية مع رسول الله ثلاث مرّات، وهذه الرابعة.

كانوا يعلمون بأنَّ رسول الله قائل لعَمَّار بن ياسر: (يا عمَّار، تقتلك الفئة الباغية). القتلى من الطرفين كانوا بالألاف بينهم من جيش علي صحابة النبي خمسة وعشرون بدرية، وثلاث وستون من أصحاب بيعة الرضوان، وقُتل في هذه المعركة أويس القرني، وهومن الذين شهد لهم رسول الله بالجنة.

إرادة الله تعالى أن لا بُدَّ من امتحان يميز به الطيب من الخبيث، فيرفع أهل الشام المصاحف بإشارة من عمرو بن العاص مع النداء (لا حكم إلا لله)، انطلت هذه الخدعة على ثلة من جيش أمير المؤمنين علي، وانشقَّ الجيش ما بين مؤيِّدٍ لمتابعة الحرب التي أذنت بالنصر للحق وأتباعه بعد أن وصل الأبطال إلى فسطاط معاوية، وبين معارض انطلت عليه خدعة عمرو بن العاص فجرّد حسامه وهجم على إمامه يطلب منه ايقاف الحرب، وهكذا أفل نجم النصر بعد أن لاح عاليا بسبب الرعاع والجهلة وعدمي الإيمان. وآلت الأمور بعد ذلك إلى التحكيم وقد أجبر أمير المؤمنين على قبوله، كان يرى أنّ

(شعار لا حكم إلا لله): كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ قَالَ لِأَبِي مُوسَى
بثقة وحزم: أحكم بالقرآن، ولو في حز عنقي. استحكّم فيهم الشيطان
فأصمّمهم وأعماهم عن الحقّ بعد أن كانوا يسمعون ويصرون ومع
خطأ الخوارج في إيقاف الحرب فإنّهم وقعوا بخطأ أكبر، وهو الإصرار
على أبي موسى الأشعري؛ بوصفه ممثلاً عن أهل العراق في قبالة عمرو
بن العاص الذي مثّل أهل الشام، وكان نتيجة إصرارهم نزول أمير
المؤمنين علي على رأيهم بعد أن أوضح لهم فساد اختيارهم وبعدهم
عن الصواب، يجتمع الحكمان ويخدع عمرو بن العاص أبا موسى
الأشعري، فيخلع أبو موسى الإمام علي ويثبت عمرو بن العاص
معاوية بن أبي سفيان؛ لتبدأ محنة الخوارج.

مبدأ الإمام علي اوفوا اذا عاهدتم، يعد المراحل السيئة في حياة الامة هي تلك التي تخان بها العهود. كان حريصا على ضرورة الالتزام بمواثيق السلم لاسيما تلك التي تضع نهاية للصراع العسكري، يقول: من ائتمن رجلاً على دمه ثم خان به، فأنا من القاتل برئ، وان كان المقتول في النار.

بعد التحكيم عاد أمير المؤمنين إلى الكوفة في 13 من صفر 37 هـ أنشقت مجموعة غاضبة من الجيش وهم نفس الأشخاص الذين ألقوا أسلحتهم في ساحة المعركة وأجبروه على قبول التحكيم في صُفين. وقالوا إن علي بن أبي طالب خان الإسلام بموافقته على الهدنة، وكان ينبغي أن يحيل الحكم إلى القرآن وحده أو يواصل القتال.

امتنعت الخوارج من دخول الكوفة، سَلَكَتْ طريقاً انحاز إلى قرية يقال لها «حروراء»، اجتمعوا بدار عبدالله بن وهب الراسبي، واتفقوا على الخروج من الكوفة إلى بلدة يجتمعون فيها لإنفاذ حكم الله بزعمهم، أشار بعضهم بالمدائن، ولكن الباقي رفض لحصانتها وقوة حمايتها، أخيراً اتفقوا على جسر النهروان، وتكالب خوارج الكوفة مع خوارج البصرة على الخروج في وقت واحد إلى النهروان.

صفات الخوارج التحجُّر، التمسُّك بالظواهر، التعصُّب، الخشونة، عدم التمييز بين الحق والباطل، يقرأون القرآن ولا يعرفون تفسيره، كانوا سريعي التأثر بالشائعات، أعلنت مبررات خروجها تحت شعار: لا حُكْمَ إلاَّ لله، ونحن لا نرضى بأن تحكّم الرجال في دين الله. كان قبول التحكيم منا خطيئة، ونحن الآن تُبْنَا ورجعنا عن ذلك، وطالبوا

الإمام بالرجوع، وإلاً فنحن منك براء.

أوضح لهم الإمام أنَّ الأخلاق الإسلامية تقتضي الوفاء بالعهد،
والذي هو: الهدنة لمدة عام، وهو ما أُبرِم بين المعسكرين.

قال لهم: وَيَحْكَمْ، بعد الرِّضَا والعهدِ والميثاقِ أَرْجَع؟

استمرَّ المارقون في غيِّهم، أشتدَّ خطرهم بانضمام أعداد جديدة
لمعسكرهم، راحوا يُعلنون القول بشرك معسكر الإمام، رأوا استباحة
دمائهم، ولكن الإمام لم يتعرض لهم، وأعطاهم الفرصة عسى أن يعودوا
إلى الرأي السديد.

بدأ خطرهم يتعاظم، قتلوا صحابي، وبقروا بطن زوجته وهي
حامل، وقتلوا نساءً من قبيلة طي. أرسل إليهم الإمام صحابي آخر
حتى يتعرَّف على حقيقة الموقف، قتلوه كذلك.

تقدَّم علي نحوهم بجيش من منطقة الأنبار، بذل مساعيه من
أجل إصلاح الموقف دون إراقة الدماء، بعث إليهم أن يرسلوا إليه
قتلة الصحابين، وغيرهما، وهو يكفُّ عنهم.

- أجابوه أنهم كلُّهم قاموا بالقتل.

كان الإمام ينظر لرعية دولته نظرة إسلامية بمستوى واحد وأن
تداول بعضهم أو عارضه يسمح له بذلك مازال لا يستخدم السيف
ضد المسلمين.

تابع أمير المؤمنين موقفه الإنساني بإرسال صحابي آخر وعظهم
ورفع راية ونادى: مَنْ جَاء تحت هذه الراية - مِمَّنْ لم يقتل - فهو
آمن، ومَنْ انصرفَ إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن لا حاجة لنا به،
بعد أن نُصِبَ قَتْلَةَ إخواننا.

قاموا بالهجوم على جيش علي، أمر الإمام أصحابه بالكف عنهم
حتى يبدءوا بالقتال.

بدءوا بالقتال شدَّ عليهم الإمام بسيفه ذي الفقار، وشدَّ أصحابه
فأفنوهم عن آخرهم، إلا تسعة نفر فرُّوا، وتحقق الظفر لراية الحق
في التاسع من صفر سنة ٣٨ هـ.

الإمام علي بن أبي طالب ابتلي في حياته - وبخاصة في عهد خلافته - بالصراعات والخلافات مع خصومه، واجهها أمير المؤمنين بصبر وثبات وحكمة وأخلاق.

من معاجز النبوة ابلاغ الإمام علي على لسان النبي بكل ما سيجري منذ ساعة وفاة الرسول وحتى شهادة أمير المؤمنين.

علي بن أبي طالب كان منزعج بشدة من استشهاد عثمان ورفض الخلافة، عرض المنصب على طلحة لكن طلحة رفض، عُرضها على الزبير رفض أيضاً.

بقت الدولة الإسلامية من ثلاثة إلى أربعة أيام بدون خليفة، حتى تمكن المهاجرون والأنصار في النهاية من إقناع الإمام بتولي الخلافة.

كان علي بن أبي طالب لا يحبذ معاقبة المجرمين الذين قتلوا عثمان في ذلك الوقت لأن ذلك قد يثير المزيد من الاضطرابات داخل المجتمع، قرر أن تكون الاستراتيجية الأفضل التحلي بالصبر والسماح يستقر الوضع ثم يتخذ إجراءً ويلاحق المذنبين.

بعد أستلام الخلافة بدأت أولى معاركه في شهر جمادى الآخرة أو جمادى الأولى من سنة 36 للهجرة. وهي معركة الجمل في البصرة.

أصحاب الجمل نكثوا بيعتهم للإمام، وهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر.

أرسل معاوية إلى طلحة والزبير كتابا دعاهما فيه إلى نقض بيعتهما للإمام والمطالبة بدم عثمان و أخذ بيعة أهل الشام للزبير وطلحة

من بعده ولم يبق أمامهما إلا أخذ البيعة من أهل البصرة والكوفة، مما أدى بهما إلى الإجهار بالخصومة لأمر المؤمنين.

لكن ذريعة المطالبة بدم عثمان من قادة الجمل تفتقد إلى الأدلة المحكمة والمدعومة بالدليل والبرهان المحكمين، خصوصاً لم يكونوا على وئام مع الخليفة عثمان!

كتب الإمام إلى طلحة والزبير كتاباً جاء فيه: «أما بعد! فقد علمتم أنني لم أرد الناس حتى أراهم، ولم أبايعهم حتى أكرهوني، وأنتم ممن أرادوا بيعتي، ولم تبايعوا لسلطان غالب ولا لغرض حاضر، فإن كنتم قد بايعتم مكرهين فقد جعلتم إليّ السبيل عليكم بإظهاركم الطاعة وكنهانكم المعصية...وأما قولكم: إني قتلت عثمان بن عفان، فيبني وبينكم من يحلف عني وعنكم من أهل المدينة ثم يلزم كل امرئ بما يحتمل، وهؤلاء بنو عثمان بن عفان فليقروا بطاعتي ثم يخاصموا قتلة أبيهم إليّ، وبعد فما أنتم وعثمان قتل مظلوماً! كما تقولون أنتم رجالان من المهاجرين، وقد بايعتموني ونقضتم بيعتي، وأخرجتم أمكم من بيتها الذي أمرها الله تعالى أن تقرّ فيه - والله حسبكم - والسلام.

وكتب إلى عائشة: أما بعد فإنك قد خرجت من بيتك عاصية لله تعالى ولرسوله محمد (ص) تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً، ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين المسلمين، فأخبريني ما للنساء وقود العساكر والإصلاح بين الناس فطلبت! زعمت بدم عثمان وعثمان رجل من بني أمية وأنت امرأة من بني تيم بن مرة، ولعمري أن الذي عرضك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان! وما غضبت حتى أغضبت ولا هجت حتى هيّجت، فاتقي الله يا عائشة وارجعي إلى منزلك واسبلي عليك بسترِك - والسلام.

قبل خروج عائشة وامتطائها الجمل نصحتها أم سلمة وذكرتها:
أتذكرينَ يومَ أقبل رسول الله ونحن معه حتى إذا هبَط من قديد
ذات الشمال، فحَلَا بعلي يُناجيه فأطال، فأردتِ أن تهجمي عليهما،
فنهيتُكِ فعصيتني وهجمتِ عليهما، فما لبثت أن رجعتِ باكية،
فقلت: ما شأنك؟

- أتيتهما وهما يتناحيان، فقلت لعلي: ليس لي من رسول الله
إلا يوم من تسعة أيام أفما تدعني يا بن أبي طالب ويومي، فأقبل
رسول الله عليَّ وهم محمَّر الوجه غضباً فقال: «ارجعي وراءك، والله
لا يبغضه أحد من الناس إلا وهو خارج من الإيمان»، فرجعت نادمةً
ساخطة.

ردت عائشة: نعم أذكر ذلك.

- ذكرتها أم سلمة قائلة: وأذكرُكِ - أيضاً - كنت أنا وأنتِ مع رسول
الله، فقال لنا: أيتكنَّ صاحبة الجمل الأدب تنبها كلاب الحوَاب
فتكون ناكبة عن الصراط؟ فقلنا: نعوذ بالله وبرسوله من ذلك،
فضرب علي ظهره وقال: إياك أن تكونيها يا حميراء.

أردفت عائشة: أذكر ذلك.

أستمر تذكير أم سلمه لعائشة إلى أن قالت لها: أيّ خروج تخرجين
بعد هذا يا عائشة؟

ردت عليها: إمَّا أخرج للإصلاح بين الناس.

نهتها أم سلمة عن الخروج بكلام شديد، تفوهت: إنَّ عمود الإسلام
لا يثأب بالنساء إن مال، ولا يرأبُ بهن إن صدعَ، حماديات النساء غضَّ
الأطراف، وخفر الأعراض، ما كنتِ قائلة لو أنَّ رسول الله عارضك في
بعض هذه الفلوات، ناصَّة قلوَصاً من منهل إلى آخر؟ والله لو سرتُ

سيرك هذا ثم قيل لي: أدخلي الفردوس، لاستحييت أن ألقى محمداً
هاتكةً حجاباً ضربه عليّ.

عزمت عائشة على الخروج وطلبت من حفصة بنت عمر الخروج
معها، تدخل عبد الله بن عمر وحذر أخته وقرأ عليها الآية، رجعت
عن عزمها وقرت في بيتها.

مرّت عائشة في طريقها بماء فباحتها كلابه، سألت عن هذا الماء
فقيل لها: إنّه الحوآب، جزعتُ جزعاً شديداً وقالتُ: ردّوني ردّوني،
سمعتُ رسول الله يقول وعنده نساؤه: أيتكنّ تنبّحها كِلابُ الحوآب؟

جاء عبد الله بن الزبير فتكلّف تهدّثها، خدعها، جاءها بخمسين
رجلا من بني عامر يحلفون لها كذباً أنّ هذا الماء ليس بماء الحوآب.

ركبت عائشة هودجاً وبصحبها طلحة والزبير والألاف من المقاتلين
وذهبت للقتال، علم الإمام بخروجهم نحو البصرة استنفر أهل
المدينة، فلبوا نداءه. انتهى إلى الرّبذة، سار عليّ بمن معه نزل بذي
قار، وبعث بابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنفران الناس،
فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة بالألاف.

انتهى إلى البصرة، وراسل القوم وناشدهم الله، فأبوا إلا قتاله.

الإمام أمر قاداته وجيشه أن لا يقاتلوا حتى يبدأوا، وأن لا يجهزوا
على جريح، ولا يمتلوا، ولا يدخلوا داراً بغير إذن، ولا يشتموا أحداً، ولا
يهيجوا امرأة، ولا يأخذوا إلا ما في عسكرهم.

رن مسمع الزبير مذكرا اياه: أتذكر يوم مررت بي مع رسول الله؟
فقال لك رسول الله: لتقاتلنّه، وأنت له ظالم!

أجابه الزبير: اللهم نعم، ولو تذكّرت ما سرّت مسيري هذا - والله
- لا أقاتلك أبداً.

انسحب الزبير من المعركة قبل نشوبها، تبعه عمرو بن جرموز مع جماعة من أصحابه، وقتله في منطقة وادي السباع، احتز رأسه، جاء به بين يدي علي بن أبي طالب، أخبره بما صنع بالزبير. فأخذ علي سيف الزبير، وجعل يقلبه، وهو يقول: إنّه لسيف طالما جلى الكروب عن وجه رسول الله (ص) ولكن الحين والقضاء.

أمر الإمام رجلاً من عبد القيس أن يرفع مصحفاً، فرفعه، وقام بين الصفين، فقال: أدعوكم إلى ما فيه، أدعوكم إلى ترك التفرق، وذكر نعمة الله عليكم في الألفة والجماعة.

رمي الرجل بالنبل حتى مات. ورمى رجل من عسكر القوم بسهم، فقتل رجلاً من أصحاب أمير المؤمنين، فأتى به إليه، فقال: اللهم اشهد، وقتل رجلاً من أصحاب الإمام وهو يقول اللهم أشهد، هذا وقت الضراب.

نشبت الحرب بين الجيشين كانت الغلبة منذ بداية الحرب لجيش الإمام وما هي إلا ساعات حتى بان الانكسار واضحاً على أصحاب الجمل.

كان طلحة خلف الجيش، انتحى بسهم أصاب ساقه فأثخنه، أدخل داراً من دور بني سعد بالبصرة فمات فيها.

وضعت الحرب أوزارها أخرجوا عائشة من هودجها وضربوا لها خيمة، نظر إليها الإمام، كلمها: ألم يأمرك أن تقري في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم، وأبرزوك.

أمر أخاها محمداً، أنزلها في دار صفيّة بنت الحارث بن طلحة العبدي. بقيت في البصرة عدة أيام، سال المسلمون أمير المؤمنين عن موقفها، رد عليهم بحديث مختصراً: «وَأَمَّا فُلَانَةٌ [أي السيدة عائشة]،

فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضَعْنَ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ القَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ
لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الأُولَى،
وَالْحِسَابُ عَلَى اللّهِ تَعَالَى.

عزم الإمام أن ترجع إلى المدينة، خرجت عائشة من البصرة، بعث
معها علي أخاها عبد الرحمن مع مجموعة من النساء من ذوات
الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما، ألبسهن العمائم وقلدهن
السيوف وأرجعها إلى بيتها معززة مكرمة.

دخلت عائشة المدينة، صارت إلى منزلها نادمة على ما كان منها،
كانت إذا ذكرت يوم الجمل تبكي لذلك بكاء شديداً، ثم تقول: يا
ليتني لم أشهد ذلك المشهد! و إذا سمعت أو قرأت ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾
تبكي حتى يبتل خمارها.

انتهت المعركة بقتل اعداد كبيرة من المسلمين مع انتصار جيش
الإمام والاعتراف بحكمته في التعامل مع هذا الأمر من قبل أم المؤمنين
عائشة .

حروب الإمام علي كما ابخله النبي على تأويل القران، الخصوم كانوا على وجهات نظر خاطئة، تفسيراً وتأويلاً، كانت ضحاياها الالاف المسلمين.

النبي تحدث عن من سيقاقل على التأويل من بعده، وأشار في حجة الوداع إلى من هم الراسخون في العلم!

هم شجرة النبوة، بيت الرحمة، معدن العلم، مختلف الملائكة، موضع الرُسالة، ورثة العلم يورثه بعضهم بعضاً.

والرسول الزم أمته بالسنة النبوية، عرفها لمن اللجوء، صرح: إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

الإمام علي بعد النبي رسخ القران في ذهنه رسوخاً، ثابتاً فيه، عارفاً بيوطنه وغوامض متشابهاته، مختص بالتفسير والتأويل، يحرك مفاهيمه وتطبيقه على الواقع الإنساني.

تعامل الإمام مع الحياة بواقعية إلى جانب ذلك جسد مضمون القران الكريم بشكل عملي ووضع منهج لحقوق الإنسان في السلم والحرب، ساري لمفعول مع المسلم وغير المسلم في خلافته، من هذه الحقوق: حق الحياة، جعل للحياة قيمة تتغلب على الموت، أي اعتداء لازهاق حياة انسان، وبغض النظر عن ماهية ذلك الانسان، هو اعتداء على الارادة الإلهية الموجودة والمأنة الوحيدة للحياة من جهة وجريمة بحق الإنسانية جمعاء، وسلب لحق اساسي من حقوق

الإنسان الا وهو (حق الحياة) من جهة أخرى، الإمام ينظر إلى القتل بأنه جريمة كبرى، قال: ان من الكبائر الكفر بالله، وقتل النفس.

كان لا ينظر إلى النصوص القرآنية بشكل مجرد فحسب بل يرى ما وراء النص في تحقيق الاهداف الاسمى ومنها حق الحياة.

خلت دولته من اسلوب التصفية الجسدية للمعارضة واي عقوبة بالقتل لأغراض سياسية، كان جالساً في دكة القضاء بمسجد الكوفة، اتوه برجل، سأل عن سبب القاء القبض عليه أجاب السامع: سمعت هذا يعاهد الله أن يقتلك!

- خل عنه.

رد الرجل: أخلي عنه وقد عاهد الله ان يقتلك!

نظر له الإمام قائلاً: انقتله ولم يقتلني؟

أردف السامع: انه قد شتمك.

قال الإمام: فاشتمه أن شئت أو دعه.

كانت دولة الإمام الإسلامية مبنية على العدالة استنباطاً من العدل في القران، تجري في روحه العدالة حتى أمام أبسط الأمور، فهو إذا استوى وأخذ الناس في حق باختيار متاع من أمتعة الدنيا أثر أن يكون هذا الاختيار من نصيب غيره لئلاً يشعر هذا الغير بأن النصيب الأوفر من الحقوق ملازم للكبير دون الصغير.

كان صوته في معركة العدالة الاجتماعية مدويًا، دفاعه عن قيم الإنسان عظيمًا، شديدًا لا هوادة فيه ولا لين، كان في حكومته المثل الأعلى للحاكم الواعي لحقوق الإنسان في تلك الحقبة من تاريخ البشر، العامل على تنفيذ منطوقها بكافة ما لديه من وسائل.

صوت علي لا تجده في عالمنا اليوم، اليوم كل شيء أصفر باهت
يبعث على الكآبة والحزن!

عند التأمل بإيمانه ومسرته العلمية ومنهجه الإنساني، لا تجد مثيلا
له، بودك أن تتمرغ بالأرض، تضم راسك بالحائط حتى تتورم.

(أه يا رب)، رأى الإمام كثيرا من عبادك على رقعة فسيحة من
الأرض، قليل منهم يعرف الطريق إليك وكثير منهم عاش يدور في
حلقة مركزها نفسه ومحيطها شهوته.

ربي نورك يغطي السهل والجبل غير بعيد على بطون الكهوف
ونفوس المخطئين، وها علي أحس يا ربي أنك تختص بعظيم أسراك كل
الذين يبحثون عنها كأنك تسعى إلى من سعى إليك وتنسى من ينسأك.

رأى كثيرا ممن لا يعرفون حقيقتك يخدعون الناس عنك. وبكى
عندما يراهم يوهمون الناس أنهم واقفون ببابك يأذنون ويمنعون،
بكي من أجل هؤلاء المحرومين أكثر من الذين حرموهم، لأنك لن
ترضى عمن يسمحون لغيرهم بأن يبيعوهم رضاك وكلهم عبادك.

سار إليك مرة بعد مرة، أول الناس اسلاما، أولهم أيمانا، ركب
ومشي وجاع وعطش، بات في العراء، بات على فراش النبي، ضحى
بنفسه، قاتل على التنزيل، وقاتل على التأويل، يقول: هذا ليس منا
عليك يا إلهي، ولكنه صلاة في قدس محرابك، فأقبل صلاتي واجعلني
من الفائزين بالشهادة.

هكذا من عشق الله تعالى وقال له رسول الله: يا علي، ما عرف
الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا.

عرف الله ونبيه، وعشق كل ما تعلق بهما، القران الكريم، السنة
النبوية، لم تثنه الخصوم والحروب ظل معها الرجل الأول في كل النواحي

الإسلامية و الإنسانية و الثقافية، ربط الإنسان بالإنسان في مجتمع هو من الكلّ و للكلّ على السواء؟

كان أميراً على زمانه و مكانه يطحن لنفسه فيأكل ما يطحن خبزاً يابساً يكسره على ركبتيه، ويرقع خُفّه بيديه، ولا يكتنز من دنياه كثيراً أو قليلاً على ما مرّ، لأنّ همّه ليس إلا أن يكون للمستضعف و المظلوم و الفقير ينصفهم من المستغلّين و المحتكرين، و يمسك عليهم الحياة و كريم العيش، فما يعنيه أن يشبع و يرتوي و ينام هانئاً و في الأرض «من لا طمع له في القرص»، و فيها «بطون غرثي، و أكباد حرّى»، قائلاً ويا لشرف القول: «أأقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين و لا أشاركهم مكاره الدهر»؟!، و لأنّ أقلّ ما في هذه الدنيا شأنًا هو خير عنده من ولاية الناس إن لم يُقِم حقّاً و يُزهق باطلاً!

قبل نقل عاصمة الخلافة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة مهد لفتح الجامعة العلمية في مسجد الكوفة، أولوياته كانت تفسير القرآن الكريم و قراءته.

جاءه في المدينة أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي، انحنى يُقبّل كَفَّ أمير المؤمنين، استقبله الإمام و طلب منه أن يقرأ، فقرأ عليه، فأمره بما سمع عن النبي ((خيركم من تعلّم القرآن و علّمه)).

جثى على ركبته بين يدي يعسوب الدين، و أذناه و اعيتان، ليسمع كلام إمامه و ينفذ خطابه: سرّ إلى مسجد الرملة الحمراء، و علم القراءة هناك، ثم أخبر تلامذتك: إننا أخذنا هذا القرآن عن قوم أخبرونا أنّهم كانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يجاوزوهنّ إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهنّ، فكنا نتعلّم القرآن و العمل به، وإنّه سيَرثُ القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم بل لا يجاوزها هنا!

عاد يقبل يدي مولى الموحدين وشد رحاله.

وصل بعد عدة شهور فشم نسيم هواء الكوفة العذب، ووقف
يسأل عمال سوقها عن دار للبيع، فاشترى.

قبل بزوغ شمس نهار اليوم التالي دق أجراس مسمع المصلين في
مسجدها بصوته الشجي تلاوة عطرة من كتاب الله حتى بدأت
حلقة الدرس منذ تلك اللحظة بعد صلاة الفجر.

فأخبرهم خطاب الإمام دون الإشارة إليه!

مضت بضع سنين فتولى خلافة المسلمين أمير المؤمنين لينصبه
معلما وأول شيخ قراء المسجد.

أبلغ النبي الإمام بعد أصابته بداء وخاف عليه أبو بكر وعمر
وعثمان من الموت بالمرض، أخبرهم الرسول: لا يموت بهذا، يموت
مقتول. ووصف القاتل وقرنه بالشقاوة، عاقر ناقة ثمود.

أجتمع عدد من غلاة الخوارج الفارين من معركة النهروان،
بالساحة القريبة من بيت الله، تذاكروا القتلى من رفاقهم وذويهم،
دلفوا من بين مصراعي الباب، متفرقين، واحداً بعد الآخر، أووا إلى
بقعة نائية من المكان، عمياء خرساء، لا تشي بهم، لا تطلع عليهم
فيها عين، لا تسمع منهم أذن، لا ينقل عنهم لسان... جلسوا يتسارون...
ظلوا ساعة في حديث موصول، يلثم بالنفس مختلف النبرات. أخيراً
التفت أحدهم إلى رفيقه، قال: لو أننا شرينا أنفسنا لله عز وجل،
فأتينا أمة الضلال، وطلبنا غرتهم، وأرحنا منهم البلاد والعباد، وثأرنا
لإخواننا الشهداء بالنهروان.

تأمل قوله الآخران. أجمعوا رأيهم على أن وُزِرَ هذه الدماء إماماً
يقع على ثلاثة هم «أمة الضلال» حسب ما يسمونهم. من بينهم

الإمام عليّ بن أبي طالب.

هتف: عبد الرحمن بن ملجم، لصاحبيه: أنا أكفيكم أمر عليّ بن أبي طالب.

تعاهدوا وتعاقدوا وتواثقوا بالله على ذلك أن لا ينكص واحد منهم عن صاحبه الذي تكفّل به حتّى يقتله أو يموت دونه، أخذوا أسيافهم شحذوها وأسقوها السمّ، توجّه كلّ واحدٍ منهم إلى جهة صاحبه الذي تكفّل به، تواعدوا على أن يكون وثوبهم عليهم في ليلة واحدة، توافقوا على أن تكون هذه الليلة هي الليلة التي يسفر صاحبها عن ليلة تسع عشرة من شهر رمضان المعظّم.

دخل ابن ملجم الكوفة، وفد فيمن وفدوا على أمير المؤمنين، ليأخذ عطاءه...فما امتدت يده حتى أمعن الإمام فيها النّظر بلحظ خاطف ثاقب الشّعاع، صوّبهُ بعد هنيئة إلى وجهه، نطق في هدوء: ما يجبس أشقاها؟

مرّ ابن ملجم بدارٍ من دور الكوفة فيها عرس، خرج منها نسوة رأى فيهنّ امرأة جميلة فائقة في حسنها تسمى قطّام بنت الأصبغ التميمي، نظر إليها هواها، وقعت في قلبه محبّتها، خاطبها: يا جارية أيم أنتِ أم ذات بعل؟

نظرت إليه قائلة: بل أيم.

أردف: هل لك في زوج لا تدمّ خلايقه؟

- ردت: نعم، ولكن لي أولياء أشاورهم.

تبعها دخلت داراً، خرجت إليه فقالت: يا هذا إنّ أوليائي أبوا أن يزوّجوني إلّا على ثلاثة آلاف درهم وعبدٍ وقينة.

تفوه: لك ذلك.

- نطقت: وشريطة أخرى؟

قال: وما هي؟

- أردفت: قَتَلُ عليّ بن أبي طالب فإنه قتل أبي وأخي يوم النهروان.

شد جبهته، لصق حاجبيه، نهرها بصوت:: ويحك!

ترقق لها، تفوه: ومن يُقدر على قتل عليّ؟ وهو فارس الفرسان
وواحد الشجعان؟

- غضبت، نهرته، كلمته بشدة: لا تكثر، فذلك أحبّ إلينا من المال،
إن كنتَ تفعل ذلك وتقدر عليه وإلا فإذهب إلى سبيك؟

تبسم لها وحرك شفّتها: أمّا قتل عليّ بن أبي طالب فلا، ولكن إن
رضيتي ضربته بسيفي ضربةً واحدةً وانظري ماذا يكون؟

- انفتحت شفّتها واساريرها قائلة: رضيتُ ولكن ألتمس غرّته
لضربتك، فإن أصبته انتفعت بنفسك وي، وإن هلكت فما عند الله
خيرٌ وأبقى من الدنيا وزينة أهلها.

ارتد طرفه إلى ماضيه الموسوم، أفصح عن سره: والله ما جاء بي إلى
هذا المصر إلا قتل عليّ بن أبي طالب.

- فإذا كان الأمر على ما ذكرت دعني أطلب لك من يشدّ ظهرك
ويسانذك.

همس في أذنها: أفعلي.

بعثت إلى رجل من أهلها يدعى وُردان من تيم الرباب كلمته
أجابها.

اتفقا على الخطبة والخطب! وعدته الفتاة عوناً تقدمه له في شخص رجل من قبيلها مطاوع جليد جسور، يشد أزره، ويحمي ظهره.

خرج وصادفه شبيب بن بجرة من أشجع من الخوارج قال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟

- وكيف ذلك؟

رد عليه: قتل علي بن أبي طالب.

- هبلك الهبول، ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً إداً، إذ كيف تقدر على ذلك؟

قال المتأمر بهدوء: أكمُنْ له في المسجد الأعظم، فإذا خرج لصلاة الفجر، شددنا عليه فقتلناه، وأدركنا ثأرنا، وشفينا أنفسنا، وإن قتلنا فما عند الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولنا أسوة في أصحابنا الذين سبقونا.

- ويحك! لو كان غير علي كان أهون علي، وقد عرفت بلاءه في الإسلام وسابقته مع النبي وما أجْدُ نفسي تنشرح لقتله.

أردف: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان العبّاد المصلّين؟

- بلى.

ختم كلامه، تفوه: فنقتله بمن قتل من إخواننا.

رد ابن ملجم: ولكن يكون ذلك في ليلة الحادية والعشرين منه فإنّها الليلة التي تواعدت أنا وصاحباي فيها على أن يبيّت كلّ واحد منّا على صاحبه الذي تكفّل بقتله، أجاوبه إلى ذلك.

كان الإمام عالماً بما سيجري عليه عارفاً بقاتله، يتوقّع ضربته، جاءه

عبد الرحمن بن ملجم يستحمله فحمله قال:

أريد حياته ويُريدُ قتلي *** عذيري من خيلي من مُرادٍ

هذا والله قاتلي لا محالة.

قال أصحابه: يا أمير المؤمنين أفلا تقتله؟!

- أجا بهم: لا؛ فَمَنْ يَقْتلني؟ أنشد:

أشُدُّ حَيَازِمَكَ للموتِ *** فَإِنَّ الموتَ لاقِيكَ

ولا تَجَزَعُ من الموتِ *** إذا حَلَّ بناديكَ

ولا تَغْتَرَّ بالدهرِ *** وان كان يواتيكَا

كما أَضْحَكَكَ الدهرُ *** كذاكَ الدهرُ يبكيكَ

قام السبط الحسن في تلك الليلة، وجد أبيه قائماً يصلي في مسجد داره، كلمه: يا بني أيقظ أهلك يصلون فإنها ليلة الجمعة صبيحة بدر، ولقد ملكتني عيناى فنمت ورأيت رسول الله، سألته: يا رسول الله ماذا لقيتُ من أمتك من الأود واللدد!

رد الرسول: ادعُ عليهم.

تضرع بالدعاء: اللهم أبدلني بهم مَنْ هو خيرٌ منهم وأبدلهم بي مَنْ هو شرٌّ منهم.

جاء المؤذّن فأذنه بالصلاة خرج وخرجت خلفه. خرج عليا فكبر في الصلاة، قرأ من سورة الأنبياء إحدى عشرة آية، ضربه ابن ملجم من الصفِّ على قرنه - بسيفه فأصابه. هتف الإمام: «قُرْتُ وربُّ الكعبة».

مات علي بن أبي طالب شهيد عظمته... مات والصلاة بين شفتيه...

مات وفي قلبه شوق إلى ربه...

